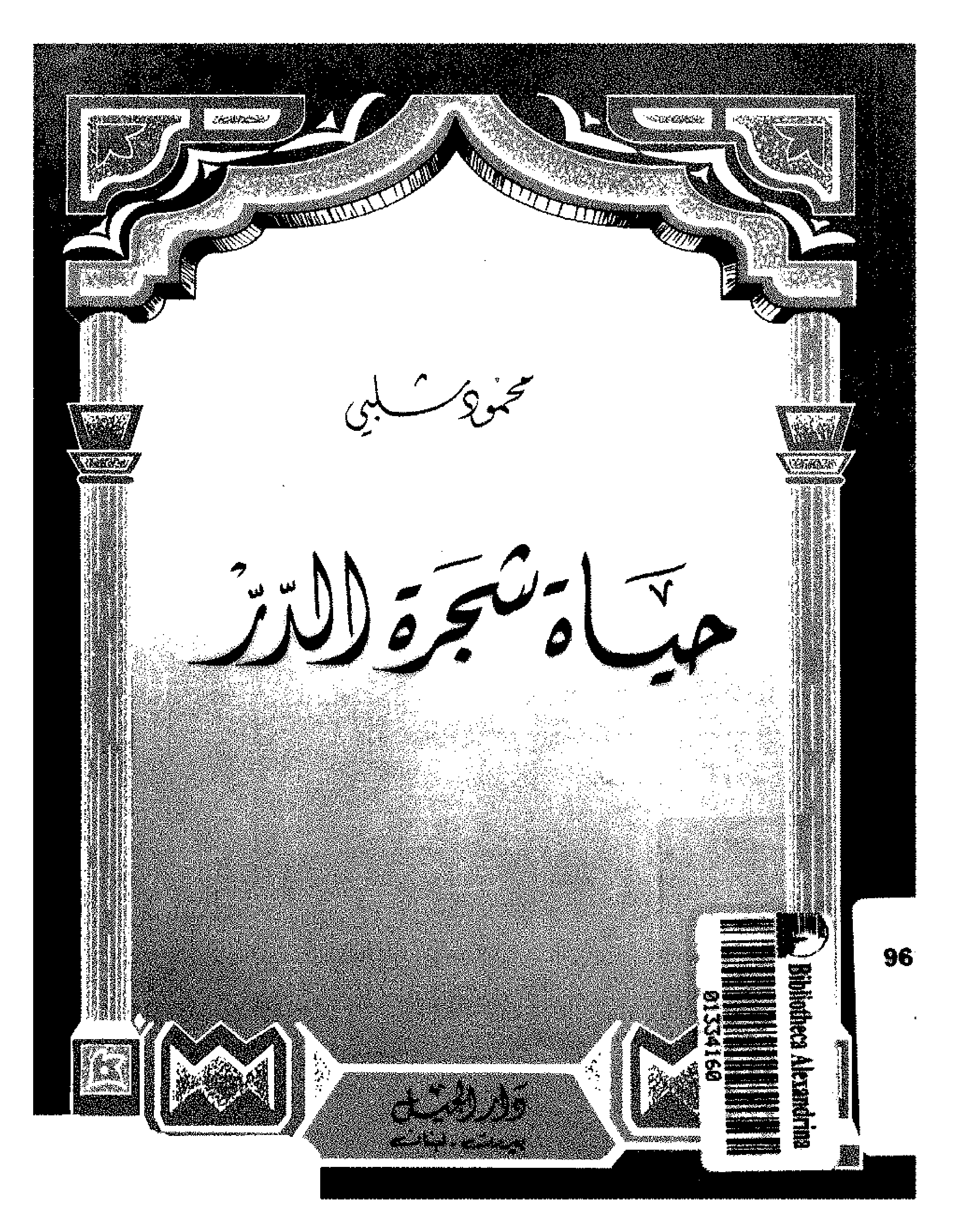
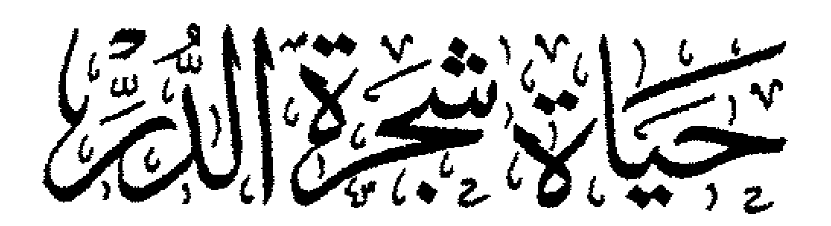

محمود شلبي
حياة شجرة الدر
دار الجيل
96

حياة شجرة الدر

محمود شلبي



حياة شجرة الدر

دار الجيل
بيروت

الطبعة الثانية
١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م

الإهداء

اللهم ... منك ... وإليك

محمود شلبي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمة

ليت الذين ينكرون عظمة العرب ، يقرءون التاريخ .

هنالك ... حيث تتلألأ مواقف العرب الخالدة في معاركهم الفاصـــلة مع أعدائهم .

هنالك ... حيث تجد أمثال معركة القادسية ، واليرموك ، وحطين ، ومعركة المنصورة .

تلك الأخيرة ... حيث التقى العرب والفرنسيون ، فما هي إلا ليلة حتى تغير وجه التاريخ ، وهزم الفرنسيون ، وانتصر المصريون ، نصراً عزيزاً .

وإليك التفصيل في ثنايا هذه القصة التاريخية ... التي لعبت فيهـــا شجرة الدر الدور الأعظم ...

١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م

محمود شلبي

– ١ –

رؤيا القديس لويس !؟

كان القصر الملكي بفرنسا حزيناً كئيباً ، تدوي في جنباته العريضة أصوات الرياح الباردة ، ويسمع في أنحائه عواء العواصف الغاضبة . وكان ليلاً ثقيلاً طويلاً ، طال فيه انتظار أهل القصر للنبأ . كانوا جميعاً يرقبون أخبار الملك . . . وكان أكثرهم يتوقعون له الموت بين لحظة وأخرى ، ولم يكونوا أبداً يوقنون بشيء إلا انه سوف يموت .

واهتزت الأشجار الباسقة اهتزازاً عنيفاً ، وعوت الريح خلالها عواءً مخيفاً ، ثم شع من مخدع الملك شعاعاً لطيفاً ، فعلم الجميع أن الملك قد استيقظ كعادته منذ مرض مرضه الأخير . حيث كان دائماً يستيقظ في السحر ، ويصلي صلاته التي أتقنها يوم أن كان في الدير ، ثم يأخذ في نومه حتى يصبح .

استيقظ الملك خفيفاً ، منشرح الصدر ، على غير عادته ، ونادى في صوت خفيض : مرجريت . . . مرجريت . فجاءته تمشي على تعب وتثاقل ، ثم قالت وهي تحاول أن تتبسم : لبيك مولاي .

فقال لويس التاسع ملك فرنسا وهو يتهلل فرحــاً وبشراً : اني رأيت في منامي عجباً . قالت : وماذا رأيت يا مولاي ؟ قال : رأيت كان قديساً عظيماً يحف به ملكان عظيمان يقبل علي من بعيد وهو ينادي لويس لويس ،

أبشر أبشر ، ولكن عليك ان اذا شفاك الله أن تقود حملة صليبية إلى الشرق . حملة ليس كمثلها حملة ، سوف تمسح عن جبين الغرب عار الهزيمة التي أوقعها به صلاح الدين الأيوبي قاهر الصليبيين . ستكون حملة فيها عظمة فرنسا وإيمان لويس ملك فرنسا . آه يا مرجريت ... لو تحققت الأحلام ؟.

وكانت مرجريت ملكة فرنسا تستمع الى زوجها مشفقة عليه من ذلك المجهود الذي بذله في حماسته الطارئة وهو يقص ما رأى . إلا أن لويس كان يتكلم في ايمان عميق بما يقول ، فحزن لما لمسه من فتور مرجريت وهي تستمع الى الشودته الجديدة ، فصاح فيها لفوره : مرجريت ... أنت تشفقين علي ؟. أليس كذلك ؟. الا فاعلمي أن الله يقدر أن يذهب عني جميع ما بي ، نعم ان الأطباء قد أجمعوا على استحالة شفائي ، وأكدوا انني لا بد ميت ، ولكني أؤمن بالله ، وأدعوه دائماً بالشفاء ، وأنا أشعر انه سبحانه قد استجاب لدعائي وإن ما رأيت في منامي الليلة ان هو إلا بشرى الشفاء ، وإنه يريد مني أن أشكر نعمته . وسيكون شكر النعمة حملة صليبية سابعة أقودها إلى الشرق.

فقالت مرجريت : شفاك الله وعافاك يا مولاي ... وحقق آمالك الكبار ورعاك ... ولكني أعلم أن الحملة على الشرق ليست بالأمر الهين ، وما خبر صلاح الدين عنا ببعيد .

فصاح لويس : اخسئي ... أمن أجل هزيمة صلاح الدين الصليبيين نجبن عن لقاء الشرق ؟. كلا .. بل نعود اليهم ، وضرب لهم في عقر دارهم بعد أن ذقنا حلاوة النصر عليهم مرة ومرات .

فقالت مرجريت في خوف : أنسيت يا مولاي يوم حطين ؟.

فقام الملك كأنما قد مسه عفريت من الجن ، ووقف على سريره وهو يصيح : حطين ... حطين ... يوم وضعنا في الطين ... حطين ... حطين ... يوم أبادنا صلاح الدين ... ماذا تعنين ماذا تعنين ؟.

قالت مرجريت وقد سرها أن أصابت منه ما أصابت : أعني أن الشرق الذي أخرج صلاح الدين ما زال قادراً على اخراج أمثال صلاح الدين ؟.

قال الملك وقد تهاوى على سريره وآب اليه هدوؤه : صدقت يا مرجريت ، ان هؤلاء العرب أمرهم عجب ، انهم لا يرهبون عدواً ، ولا يرغبون في دنيا . انهم يقاتلوننا قتال من يريد أن يموت . ان فيهم قوة خلاقة بناءة ، إذا انطلقت دمرت عدوها ، وأرهبت خصمها ، وشيدت بناءها ، وأعلت رأسها ، فأصبح من المحال اللحاق بها ، أو الجري في أعقابها .

— انهم قد يختلفون فيما بينهم ولكنهم يد على من عاداهم، أرأيت يامرجريت كيف وحدهم صلاح الدين ثم قهر بهم الصليبيين ؟.

لقد نكأت جرحاً في قلبي بذكرك لحطين ... العـــار الذي لطخ جبين الصليبيين ... وهل أستطيع أن أنسى يوما كان جيش الصليبيين فيه ثلاثة وستين ألفاً ، فأسر نصفه صلاح الدين وقتل نصفه ؟.

— وهل يستطيع الغرب أن ينسى يوما ما أصيب الفرنج منذ خرجوا إلى الشرق منذ تسعين عاماً بمثله إلى اليوم .

قالت مرجريت باسمة في دهاء الأنثى وقد سرها أن تغلبت على رجلها : ويوم بيت المقدس يا مولاى ... هو عندي مصيبة المصائب ، وما حطين بالنسبة اليه إلا حلقة في فلاة ، أو قطرة في محيط . يوم استولى صلاح الدين على بيت المقدس ، يوم استسلم له البيت المقدس بملوكه وملكاته ، وقسيسيه ورهبانه ، وسكانه وساكناته . . . وجاءوا جميعـــاً اليه راكعين . لقد كان يوماً عبوساً قمطريراً .

فهاج الملك وماج،ثم صاح كأنما يريد ان يسمع صوته كل من في الأرض والسماء : اورشليم ... اورشليم ... أيتها الحبيبة ... سوف أقود حملة إلى الشرق ... وأنقذك من أيدي الكفار المسلمين .

- ٢ -

الحملة الصليبية السابعة ؟!

برىء الملك لويس التاسع من مرضه الذي اشفى فيه على الموت . فرأى لزاماً عليه أن يبر بقسمه ، ويفي بنذره ، فأجمع أمره ، وشاور قادته ، واستقر الرأي على تجهيز الحملة الصليبية الكبرى .

فجمع جيشاً لم يجتمع مثله قط . . .

وأبحر من مرسيليا على ألف وثمانمائة سفينة ، قد اجتمعت له من بيزا وجنوة والبندقية وغيرها من بلاد الساحل .

وخرج القديس لويس يحمل في قلبه أحقاداً على الشرق عامة ، وعلى مصر — قلب العروبة والإسلام — خاصة . لذلك أصدر أوامره باعتباره القائد الأعلى للجيش الفرنسي بالمسير إلى مصر .

وكانت مصر إذ ذاك هدفاً للحملات الصليبية المتتابعة ، وكان الغرب كله يعلم أن ملكها فقد ملك الشرق ، ومن حازها فقد أذل ما حولها .

وقد حاول الصليبيون جهدهم أن يتملكوها ففشلوا المرة بعد المرة .

وصدهم عنها صلاح الدين الأيوبي مراراً ، إلا انهم عاودوا الهجوم عليها في عهد ملوك الدولة الأيوبية من بعده .

وكان الصليبيون يركزون هجومهم على مدينة دمياط لما لها من أثر بالغ في غزو مصر كلها . إذ كان موقعها على مصب الفرع الشرقي للنيل مغرياً لهؤلاء الغزاة على قصدها ، ليركبوا النيل منها إلى القاهرة ، فلا يعترض سبيلهم شيء

ـ فيما يزعمون ـ دون امتلاك البلاد المصرية . على أن دمياط كانت من المناعة وعظم الاستعداد بحيث لا يسهل على العدو أن يقتحمها دون أن يتعرض للهلاك ، وبعد حصار طويل يستنفذ قوته وجهده .

وقد ثبتت لحصار الصليبيين ذات مرة ـ عام ستمائة وخمسة عشر هجرية ـ فلم يستطيعوا أن يقتحموا أسوارها إلا بعد سبعة عشر شهراً ، ولم يكن بها يومئذ من المقاتلة قوة ذات شأن .

كان ذلك في الحملة الصليبية الخامسة ـ في عهد الملك العادل سيف الدين ، جد الملك الصالح نجم الدين . وكان على رأس الجيش الزاحف على دمياط في تلك الحملة القائد « جان دي برين » والأسقف بلاجيوس .

وقد حاصر هذا الجيش دمياط حصاراً قوياً حتى عز على أهلها أن يجدوا الطعام ، ولكنهم مع ذلك لم يستسلموا .

وظل الحصار مضروباً على المدينة عاماً وبعض عام ، ومات في أثناء ذلك الملك العادل ، وتولى عرش مصر من بعده ولده الملك الكامل ، أبو الملك الصالح نجم الدين .

فماذا كانت نتيجة تلك الحملات ؟

كانت نتيجة هذه الحملة ـ ككل الحملات الصليبية على مصر ـ هزيمة الصليبيين .

* * *

مرت على رأس القديس لويس كل هذه الأفكار ، فزادته إصراراً على حملته ، ورغبة في التوجه إلى مصر .

مصر التي أسس فيها صلاح الدين ملكه .

صلاح الدين الذي قهر الغرب وأذله .

ألا قد حان وقت الانتقام .

* * *

وخرج الأسطول الصليبي وعلى رأسه ملك فرنسا ، واتجهوا إلى قبرص .

وتلبثوا بها حتى استكملت الحملة أهبتها .

وطار النبـــأ في الأرجاء ، وبلغ مسامع سلطان مصر إذ ذاك ، الملك نجم الدين أيوب ، وهو بدمشق ، فأسرع عائداً إلى القاهرة مقر ملكه ، ليصد عنها الغزاة .

وفي قبرص استكمل لويس عدته ، وجهز جيشه بمـــا استطاع من ذخيرة وتموين وأسلحة ورجال .

ووقف الملك لويس يعد جيشه ، فإذا به تسعة آلاف وخمسمائة فارس ، ومائة ألف وثلاثون ألف جندي ، سوى الغلمان والسوقة والبحارة .

يا لها من حملة سوف تغير مجرى التاريخ !

مائة وخمسون ألفاً من الجنود ؟

واطمأن لويس إلى قوته ... وأمر بالتحرك إلى غزوته .

– ٣ –

مصر في المعركة !

سارت الحملة إلى دمياط فخورة بعددها وعدتها .

وفي نفس الوقت أمر الملك الصالح باستكمال وسائل الدفاع عن دمياط .

فبعث بابن عمه الأمير فخر الدين أميراً على حامية دمياط .

وأمره أن يدافع عنها لآخر قطرة من دمه ودماء جنوده وضباطه ، كما دافع عنها أجداده في عهد الملك العادل والملك الكامل .

ذهب الأمير فخر الدين إلى دمياط ، وتوجه بنفسه إلى مدخلها من جهة البحر ، ووقف يفتش على برج السلسلة ، الذي يعتبر قفل البلاد المصرية .

وصفة ذلك البرج في وسط الجزيرة في النيل ، عند انتهائه إلى البحر ، ومنه إلى دمياط ، وهو على شاطىء البحر ، وحافة السلسلة منه إلى الجانب الآخر ، وعليه الجسر وسلسلة أخرى لتمنع دخول المراكب من البحر إلى النيل .

وعلى حافة البرج ، هناك حيث تقع رأس البر الآن ، ووقف الأمير العربي ووجهه إلى البحر الأبيض ، بحر العرب في ذلك الزمان ، حيث كان العربي يسير من شرقه إلى غربه في مملكة عربية متحدة ، لا يفصلها فاصل، ولا يقسمها حدود سياسية مخترعة كما هي الحال الآن .

نظر الأمير العربي إلى البحر ، ورأى أمواجه ترتفع وتنخفض كأنها تريد أن تبطش بقوى الغدر الآثمة التي تتجمع على ظهرها .

ثم استدار ونظر إلى النيل ، ذلك النهر الخالد ، الذي هو سر الحياة لأهله ، ثم تنفس طويلاً ، ورفع يديه إلى السماء ونادى : اللهـــم نصرك الذي وعدتنا يا أرحم الراحمين .

وإن هي إلا أيام قلائل حتى بدت طلائع الحمـــلة الفاجرة بالقرب من الشواطىء المصرية .

وظهر الأسطول الفرنسي الصليبي قريباً من دمياط .

هنالك تأكدت الأنباء باعتزام لويس التاسع الهجوم على الديار المصرية .

وأمر الأمير فخر الدين حامية دمياط بالاستعداد

فشحنت دمياط بالذخائر ، وأحكمت الشواني ، ونزل فخر الدين ابن الشيخ بالعساكر على جزيرة دمياط .

فأقبلت مراكب الفرنج فأرست في البحر بإزاء المسلمين في صفر من سنة سبع وأربعين وستمائة من الهجرة .

ثم شرعوا من الغد في النزول الى البر الذي فيه المسلمون .

وضربت خيمة حمراء لملك فرنسا .

وناوشهم المسلمون القتال .

ووقف بضعة آلاف من المصريين يقاتلون مائة وخمسين ألفا من الفرنسيين !

فقتل يومئذ الأمير نجم الدين ابن شيخ الإسلام ، والأمير الوزيري .

فترجل فخر الدين ابن الشيخ بالناس ، وقطع بهم الجسر إلى البر الشرقي الذي فيه دمياط ، وتقهقر إلى أشمون طناح ، ووقع الخذلان على أهل دمياط ، فخرجوا منها طول الليل على وجوههم ، حتى لم يبق بها أحد .

وكان هذا من قبيح رأي فخر الدين ، فإن دمياط كانت في نوبة سنة خمس عشرة وستمائة أقل ذخائر وعدداً ، وما قدر عليها الفرنج إلا بعد سنة ، وإنما هرب أهلها لما رأوا تقهقر العسكر وضعف القيادة .

فلما أصبحت . . . ملكها الفرنج صفوا . . . بما حوت من ذخائر وعدد وأسلحة وغلال ومناجيق ، فكانت تلك مصيبة لم يجر مثلها .

وما أجمل وصف أحد الكتاب المعاصرين لذلك الموقف حيث يقول : « فما كانت إلا كرة بعد كرة حتى تقهقرت قوات الدفاع وألقى الرعب في قلوب الحامية ، فلم تثبت لهجوم الفرنجة ، وأخلت معاقلها . وجلس العدو خلال الديار يهتك ويسفك ويفتك . ومضى الجيش المصري على وجهه موليا أدباره ، لا يقف في سبيله شيء ، ووراءه الآلاف من أهل المدينة رجالاً ونساءً، وأطفالاً يتخطفهم الموت على الطريق . وقد امتلأت الأرض بجثث القتلى ، وأجساد الجرحى ، تطؤها أقدام الفارين ، وتحطمها سنابك الخيل . واستولى الفرنجة على دمياط بلا كبير عناء . لم يحمها بنو كنانة ولا جيش فخر الدين » !!

- ٤ -

محاكمة الفارين عسكريا ؟!

كان انسحاب الأمير فخر الدين ، وتقهقره بالحامية ، بعد أن رأى عدم جدوى المقاومة ، حيث يقف ببضعة آلاف أمام مائة وخمسين ألفا ، وجـــلاء سكان دمياط المدنيين عنها بتلك الصورة المحزنة ، ثم استيلاء الفرنج على دمياط بتلك السهولة ، كان كل ذلك أمراً عظيما وشيئا نكرا .

ذلك أن الفرار أثناء الزحف يعتبر جريمة كبرى في التشريع الاسلامي والعرف العربي .

فالمؤمن بالله ورسوله ، لا يعرف الفرار في الميدان مهما كانت الظروف والأحوال ، لأنه يقرأ قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة ، فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير » .

ولقد كان المجتمع العربي وقتها مجتمعاً إسلامياً ينزل على حكم الاسلام في كل شيء ، ويأخذ أخلاقه وتقاليده من الدين الحنيف .

لذلك كان وقع تلك المصيبة أليماً على مشاعر الشعب العربي .

ومن أجل ذلك ما كادت أنباء الهزيمة تصل إلى الملك الصالح ، حتى غضب أشد الغضب ، واقسم لينكلن بالفارين نكالاً عظيما ، وليجعلنهم عبرة لمن سواهم .

ووصل العسكر والأهالي إلى الملك فتلقاهم غاضباً .

وأمر فوراً باعدام جميع ضباط الحامية ، وأن يحمل إليه رأس الأمير فخر الدين قائد الحامية .

فأعدم جميع الضباط تنفيذاً لارادة الملك الغاضب لكرامة وطنه وبلاده .

إلا أن الأمير فخر الدين نجا من الموت بأعجوبة . ولم يكن الأمر بالنسبة اليه أمر مجاملة أو محاباة لأنه من الأمراء الصالحية ، أو لمكانته من الملك الصالح وإنما كان سبب نجاته أن شجرة الدر زوج الملك وصاحبة الدلال عليه ، جاءت تشفع فيه .

قالت : « وماذا كان يملك فخر الدين أن يفعل ؟.. لقد وقف يدافع دفاع المستميت بحفنة من الجنـــود ، الا أن الكثرة تغلب الشجاعة يا مولاي . . . فانخزل عنه جيشه ، وانفض عنه عسكره ، ورأى فخر الدين ذلك فقرر الانسحاب لا فراراً من العدو ، ولكن بناء على خطة موضوعة ، وليس فخر الدين بالذي يفر ، وما عاهدنا عليه إلا الشجاعة والاقدام . . .

قال الملك « كان يملك أن يثبت على فرسه وحيداً حتى يدركه الموت . . .

وما زالت الشجرة تداور الملك ، وتلطف من غضبه حتى اقتنع برأيها ، وعفا عنه .

قالت الشجرة : وكان ينبغي ذلك العفو بالنسبة الى الذين أعدموا جميعاً يا مولاي

قال الملك وهو يبكي : شاء الله وما شاء كان يا شجرة الدر ، لقد شق عليّ أن يفروا وتقع دمياط العزيزة في أيديهم .

— ٥ —

الملك الصالح يسير بجشه إلى لويس التاسع

وثارت في أعماق الملك الصالح عروبته ، وناداه إسلامه ، فقرر أن يسير بنفسه الى الغزاة .

واستشار أطباءه فأشاروا عليه أن ينيب عنه أحد الأمراء ، لأن صحته لا تحتمل حربا ولا تطيق حركة .

وصاح الملك في أطبائه : أنا ملك لشعبي ، فلتذهب صحتي إلى الجحيم ، ولكني لن أتخلى عن واجبي ... فإلى المعركة ...

وأمر الملك الصالح فنقلت القيادة العليا الى المنصورة .

وسار بالجيش المصري كله من القاهرة حتى نزل المنصورة ، وكان نزوله بالمنصورة شيئاً عجيباً للناس كافة .

فكيف كان ذلك وهو لا يستطيع مشيا ولا ركوبا ؟

لقد أمر الملك الصالح بهم فحملوه في محفة ، وسار محمولاً في تلك المحفة عليلا على رأس جيشه ، ليؤدي واجبه ، ويصد الغزاة عن بلاده ... فكان موقفاً منه جليلا رائعاً !!

ونزل بالمنزلة التي كان نزلها من قبل جده الملك الكامل ... بالقصر الملكي بالمنصورة .

* * *

وأمر الملك الصالح بالتعبئة العامة ، فاجتمع جيش لا يحصى من العربان والمطوعة علاوة على الجيش النظامي ... وشرعوا في الاغارة على الفرنج وتخطفهم ومناوشتهم ، واستمر ذلك أشهراً . والسلطان يتزايد ، والأطباء قد آيسته لاستحكام المرض به .

وقضت البلاد اشهراً من الحياة القلقة ، اشهراً من الكر والفر ، يهجم فيها المصريون على خطوط الفرنسيين على طول الجبهة ، فيقتلون منهم ، ويأسرون كثيرا ...

- ٦ -

موت الملك الصالح ؟!

وفي ليلة النصف من شعبان سنة ستماية وسبعة وأربعين من الهجرة النبوية المباركة ، عرض للملك الصالح نجم الدين أيوب اسهال حاد كادت تندلق من هول نوباته أمعاؤه .

وعلى سريره بقصر المنصورة ، جعل يعاني سكرات الموت .

ونظر الملك إلى قصره في حسرة المفارق ، فرأى هواء الليل الجميل وهو يداعب ستائره الحريرية الثمينة ، ثم ألقى نظرة على زوجه شجرة الدر الساهرة بجانبه ، فوجعه ان رآها تمسح عن عينيها دموعها المنهملة على خدودها الناعمة .

ثم تحدث إلى نفسه . هذا أنت يا نجم الدين تموت وتترك الدنيا بما فيها و لقد جئتمونا - دي كما خلقناكم أول مرة » . يا ليتني أبقيت توارنشاه بجواري ... يا ليتني ...

ثم قطع حديثه بسعال حاد ، أعقبه إسهال ينذر بالموت .

وقد كان ... فقد أسلم الملك روحه في سكون ليلة النصف من شهر شعبان ، وأغمض عينيه إلى الأبد .

- ٧ -

شجرة الدر تفكر ؟!

وجذبت شجرة الدر الغطاء على زوجها ، كأنمـــا هو في نومة عميقة لا في وفاة سحيقة ، ثم جلست هادئة على مقعد بجوار سريره ، وغرقت في أفكارها.

قالت لنفسها : ها قد مات الملك ... وكلنا سوف نموت .. ولكن كيف السبيل إلى صد الصليبيين عن البلاد ؟. ومن يخلفه في رسالته ؟.

ـ هل أدعوا ولده تورانشاه من حصن كيفا ؟

ـ هل أؤمر أحد أمراء المماليك البحرية ؟. ولكنهم أرقاء فكيف أولي العبيد على البلاد ؟.

وأفاقت شجرة الدر من أفكارها ، عندما تذكرت أن الصليبيين يقفون على أبواب المنصورة ، توشك قواتهم أن تقتحم البلاد كلها . ورأت بإحساس المرأة انهم لن يتورعوا عن فعل كل شيء . سوف يهتكون أعراض النساء ... سوف يقتلون الأطفال ، سوف يسلبون الأموال ، سوف ينسفون القرى الآمنة على أهلها ... وصور لهـا خيالها أنه لا يبعد أن تكون هي كذلك من بين أولئك النسوة اللاتي سوف يقعن أسيرات في أيدي قوات لويس التاسع . وناداها من قلبها إحساس جارف ، أنه لن يكون هـذا أبداً ... ولن يستمكن الصليبيون من البلاد !..

- ٨ -

نائب السلطان ؟!

وهداها الله إلى فكرة طيبة ... فبعثت في طلب الأمـير فخر الدين ابن الشيخ ، وابن عم السلطان ، وصاحب الحظوة والمكانة لديه .

ودخل الأمير إلى القصر الملكي ، بغير اذن من حجابه ، فقد كان من عادته أن يدخل ويخرج كيف شاء ، لمكانته من ابن عمه السلطان .

ثم بدا للأمير أول دخوله أن يطمئن على صحة ابن عمه الملك الصالح ، فدخل إلى الجناح الملكي ، ودلف إلى مخدع الملك ، وتوجه إلى حيث يرقد على سريره .

ومد يده يزيح عنه غطاءه شيئاً فشيئاً ، فما كاد يراه حتى صاح : مات ؟..
إنا لله وإنا اليه راجعون ... هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ... متى وكيف كان ذلك يا شجرة الدر ؟

قالت الشجرة : كان ذلك منذ لحظات ... وانفجرت تبكي وهي تشد على وجهه الغطاء .

قال الأمير : ولماذا أخفيت عنا كل ذلك ؟.

قالت : لأنه مات فجأة وهو يحـــدثني عن رغبته في القضاء على الصليبيين الغادرين ...

قال : كأن الناس موتى وهم لا يشعرون ؟.

قالت : دع عنك أحلامك ونواحك الآن أيها الأمير ... نحن في حرب مع الصليبيين ...

قال الأمير : أجل ... أعراضنا في خطر ...

قالت : وماذا أعددت لحماية أعراضك يا فخر الدين ؟.

قال : هذا شيء يحتاج إلى تفكير .

قالت : هذا ما دعوتك من أجله .

قال : ينبغي أن ننظر في أمر الميت أولاً .

قالت : بل ننظر في أمر البلاد أولاً أيها الأمير .

قال فخر الدين : نعم ... الحي أبقى من الميت ... ماذا تريدين ؟.

قالت الشجرة : أريد أن أقول للناس جميعاً ، أن الملك الصالح حي يرزق ، لم يحدث له شيء غير مألوف .

قال فخر الدين : وكيف ذلك وغدا يشيع آلاف الخلائق جثة المليك ؟!.

قالت : لن تشيع جثته ، ولن يدفن الملك !!.

قال فخر الدين : تريدين العار على بني أيوب ؟. وحفدة صلاح الدين ؟!

قالت الشجرة : بل أريد العزة والفخار لأبناء صلاح الدين .

قال فخر الدين : فكيف إذ يموت الملك ولا تشييع له جنازة ؟ .. ولا يدفن له جسد ؟!.

قالت : أيها الأمير ... شرح الله صدرك ... وأعز بك مصرك ... اعلم أن الصليبيين إذا علموا بموت الملك الصالح جاءوا إلينا يهرعون ، ينتهبونها فرصة لاقتحام البلاد طولاً وعرضاً وأنت تعلم أن الملك لم يوص لأحد بولاية عهده، وأن ابنه تورانشاه بعيداً عن البلاد ، أميراً على حصن كيفا ، وأنه لا يستطيع العودة إلى بلاده سريعاً ، وأنه لا بد للجيش من قائد أعلى ، يؤمن بقيادته ، ويتقدم تحت رايته . ولقد كان جيش مصر مؤمناً بزعامة الملك الصالح بعد أن سار على رأسه محمولاً في محفة لا يستطيع حراكا ، كان يقاتل واثقاً في حسن تدبيره ،فإن نحن فاجأناه بموته ، اضطرب عليه الأمر ، ولربما افترقت البلاد والجند ..

ثم نظرت شجرة الدر إلى فخر الدين في اعتزاز وقالت : فلتكن أنت الملك يا فخر الدين ، انقاذاً للموقف ...

فغضب فخر الدين غضباً شديداً وقال : إن مثـــلي وقد انهزم في معركة دمياط ، وأصدر الملك عليه حكما بالاعدام ، فتمرغت سمعته في الأوحال ، لم يعد يصلح لهذا الأمر ...

قالت الشجرة : ألست ابن عمه ؟. ألست ابن شيخ الاسلام ؟. من للملك غيرك يا فخر الدين ؟.

قال الأمير : هناك تورانشاه ... ابن الملك لصلبه ... هناك غيري من الأمراء الصالحية !!.

قالت الشجرة : وهل أبقى الملك الصالح منهم أحدا الا طارده وأبعده ؟. لقد كان قليل الثقة بهم ، شديد الخشية على عرشه منهم .

قال فخر الدين : لا تنسى هؤلاء المماليك البحرية بجزيرة الروضة ، وقد استفحل أمرهم ، حيث يتواثبون تواثب الضفدع ، وتشرئب أعناقهم الى الامارة والملك .. هناك أقطاي ، وهناك بيبرس ، وهناك غيرهم كثير .

قالت شجرة الدر : كل هذا وأكثر منه مر بخاطري قبل قدومك ، وكأني قد نسيت أمر هذه الجثة ، ولم أعد أذكر إلا شيئاً واحداً ... هو الموقف !.

قال الأمير : الموقف جد خطير ... نحن في ساعة يقف فيهـا الشرق والغرب وجهاً لوجه ، فإما شرق أبداً وإما غرب أبداً . ليس الأمر أمر ملك ذهب وملك يخلفه ، وإنما الأمر أمر شعوب الشرق بأسرها ، هل تذل إلى الأبد أم تعز الى الأبد ؟!.

قالت الشجرة : وإليك الحل الوحيد أيها الأمير .

قال الأمير : وما هو ؟.

قالت : أن يظل أمر وفاة الملك سراً بيننا مطوياً !..

قال : ثم ماذا بعد هذا ؟!

قالت : ويدبر الأمر كأنه حي يرزق .

قال : وكيف السبيل إلى ذلك ؟!

قالت : لقد تعود الناس منك أن تدخل دائماً على ابن عمك بغير اذن . من أجل ذلك تكون أنت نائباً للسلطان، تستقبل الناس ، وتتلقى عنهم ما يريدون رفعه الى الملك ، وتدخل به الى هذه الحجرة .

قال : ثم ماذا بعد هذا ؟. من يقضي في الأمور ؟!.

قالت شجرة الدر . بمشورة فخر الدين ... ثم تبسمت في حزن ...

قال : يا لها من فكرة أيتها الشجرة ؟! لعمر الله انها لشيء جميل سوف يخزي العدو ، ويحسم الأمور !.

قالت : والله يهدينا سواء السبيل .

قال الأمير : ولكن هذه الجثة ؟!

قالت الشجرة : دع عنك كل هذا ... سأدير الأمر ... على خير ما يرام .

- ٩ -

جثمان الملك ؟!

أشرقت الأرض بنور ربها ، فانتشرت الطير على الأشجار تؤدي صلاتها ، لا يحجبها عن ربها شهوة ، ولا يصدها عن خالقها نزوة .

وانطلق شعاع من الشمس يتمدد حثيثاً في آفاق السماء ، وينبسط لطيفاً على أرجاء الأرض ، فيبتسم له الزهر ، ويصدح له الطير ، وتشدو له العنادل ...

وامتدت موجة الحيـــاة فشملت قصر الملك الصالح بالمنصورة ، فبدا في الصباح كأنه جنة رائعة تحف بقصر من الأحلام !.

وألقت شجرة الدر نظرة عاجلة على ذلك الجمال الخلاب ، ثم جذبت الستائر التي كانت تقف من خلفهـــا ، وارتدت باكية ، قد انهدت قواها ، وخارت أعصابها .

لقد هيجت الذكرى أحزانها . لقد كان الملك الصالح كل صباح يصلي الفجر ، ثم يقرأ ورده من القرآن ، ثم يقف هذه الوقفة — وهي إلى جواره — يتأمل عجائب ملك الله قبل شروق الشمس . من أجل ذلك ما كادت تقف وحدها ، حتى انهمرت دموعها وخارت قواها !

رجعت الشجرة الى داخل القصر لتبكي بـــكاء الأنثى المكلومة ، ولكنها

تذكرت أنها شبه ملكة ، موكول اليها سياسة البلاد ، فاستأسدت من أنوثة ، واشتدت من ضعف ، وكفكفت دمعها سريعاً .

ونادت الشجرة فجاءها خادمها الخــــاص فقالت له : نادني بطبيب الملك الخاص ، الذي كان يشرف على علاجه وهو في مرض الموت .

وجاءها الطبيب يسعى على عجل ، ظاناً أن الملك في حال من الخطورة .

قالت : ارفع عنه غطاءه ...

فرفع عنه غطاءه ... فرآه ميتاً ... قال : إنا لله ...

قالت : وإنا اليه راجعون . دع عنك التفجع والتوجع ، واسمــــع إلي ما أقول .

قال : هذا أنا فانظري ماذا تأمرين ؟ .

قالت : تقوم من فورك ... وتحنط جثمان الملك بأحسن ما تملك من حنوط .

قال : أمر سيدتي ...

قالت : وتلفه ، وتجعله في صندوق من خشب الصنوبر .

ثم أشارت إلى الخادم : وأنت ... تعينه في عزم وإخلاص .

قالت وهما ينظران اليها في دهشة : نعم ... ويظل هذا بينكما سراً ، لا يعرفه أحد سواكما ، ولئن أطلعتما عليه أحداً غيركما لأصلبتكما جزاء وفاقا .

فلما رأت الشجرة اصفرار وجهيهما ، جعلت تلاطفهما بعد أن أرهبتهما : نعم الرجل ونعم المعين ، لئن صدقتماني ما آمركما لأكافئنكما مكافأة ينشرح لها الصدر ويطرب منها الفؤاد .

قالت : والآن ... اذهبا الى العمل ... سراً مطوياً ... سراً مطوياً ...

- ١٠ -

جزيرة الروضة ؟!

ما أجمل جزيرة الروضة وما أحلاها !..

يحتضنها النيل بين ذراعيه ، وهي ترقد بينهما حالمة سعيدة ، كأنها ليست من هذه الدنيا .

إذا وقفت تنظر إلى الشاطىء المقابل ، رأيت أفواجاً من النخيل الباسقات شامخة على الشاطىء ، تتمدد من ورائها الآفاق حتى أهرامات الجيزة العتيدة . وإذا وقفت تنظر شرقيها بهرتك الفسطاط بمبانيها المتهدمة ، من آثار الحريق الذي دمرها عن آخرها ، عندما أحرقوها أيام الفاطميين ، حتى لا يستولى عليها الصليبيون .

عرف الملك الصالح ما للجزيرة من فضل على سواها ، فوقع عليها اختياره لتكون مقراً للقلعة التي قرر تشييدها لتنافس قلعة الجبل . فاتخذها مركزاً لسطوته بدلاً من قلعة الجبل التي على المقطم . فأنشأ فيها قلعته التي عرفت بقلعة المماليك البحرية ، نسبة الى النيل الذي يحيط بها ، أحاطها بأبراج تدور من حولها ، وتطل على شاطىء النيل الشرقي والغربي . وأقام فيها لمماليكه سكناً كاملاً ومستقراً . فلقد كان يعتمد عليهم اعتماداً تاماً في ملكه وحربه .

وأنشأ فيها قصراً فخماً يقيم فيه هو وزوجته المقربة شجرة الدر .

أما باقي الجزيرة من الجهة الشمالية ، فأنشأ فيه شيئاً يشبه حدائق الحيوان في أيامنا هذه ، إلا أنها على أسلوب ملكي . فهي حديقة زاهرة يانعة ، فيها صنوف

النسور والنعام والأسود والطواويس . لينعم برؤيتها كلما ألذّ له أن يشهد أو أن يطرب .

* * *

على شاطىء جزيرة الروضة هذه ، حيث الدولة والصولة ، أرست احدى السفن الملكية قادمة من القصر الملكي بالمنصورة .

وبعد أداء المراسم المعهودة في مثل هذه الحالات ، وقف الأمير حسام الدين ، نائب السلطان على القاهرة في صمت تام . . .

وأنزل صندوق ملفوف لا يرى عليه أثر ينم عما فيه . وحمل الجنود ذلك الصندوق ، وهم لا يشعرون ماذا يحملون ؟! ودخلوا به . . . ووضعوه حيث كانت الأوامر لهم أن يضعوه !.

وعادت الى القصر أحواله من الصفاء والهدوء .

واهتزت حدائق الجزيرة ليلا اهتزازاً لطيفاً .

وعادت السفينة الملكية إلى حيث أتت .

ونشرت شراعها ، وغنى ملاحوها ، وجعل غناؤهم يختفي مع الظلام ، وهم يبحرون شمالاً عائدين إلى المنصورة !.

– ١١ –

ماذا في القصر الملكي بالمنصورة ؟!

وبينما كان الفدائيون المصريون ينقضون ليلاً ونهاراً على الصليبيين انقضاضاً ، ويتخطفونهم كما يتخطف الموت خيار الناس ، كان الشعب المصري يجري في

حياته على أسلوبه المألوف ، لم يتغير شيء ، ولم يعلم شيئاً . أما القصر الملكي بالمنصورة ، فقد كان كما هو في شئونه كلها . تجرى المراسيم فيه كعادتها !..

يدخل اليه كبار رجال الدولة ، فيستقبلهم الأمير فخر الدين ، بدعوى ان الملك لا تسمح حالته الصحية بمقابلة أحد، وإن الأطباء قد أشاروا عليه بذلك ؟

ويتلقى الأمير فخر الدين عنهم ما يريدون إبلاغه الى السلطان، ثم يستمهلهم قليلاً ، ريثما يدخل الى السلطان برغباتهم !..

ويغيب عنهم ... ثم يدخل الى شجرة الدر يبلغها الرغبات .

فتنظر الشجرة فيما يرفعه اليها نظر الحكيم الخبير ، وتشاوره فيما يسمو على تفكيرها ، حتى إذا ما اتفقوا على الأمر نفذوه كما لو كان الملك الصالح هو الذي قضى فيه . فإن كان مرسوماً يحتاج إلى توقيع الملك وقعته شجرة الدر تماماً كتوقيع الملك . وإذا كان أمراً يراد رأي الملك فيه أشارت فيه برأي لا يختلف في شيء عما كان يراه الملك . وإن كان رغبة في مقابلة الملك ، كان الرد أن الملك الصالح يشكر الذين يستفسرون عن صحته ويعتذر عن المقابلة . وإذا أراد أحد رجالات الدولة مقابلة الملك وأصر ودخل القصر بالرغم من الأمير فخر الدين ، تلقته شجرة الدر غاضبة وأمرته بالخروج ، وصاحت به : تلك أوامر مولاي السلطان .

- ١٢ -

حرب الفدائيين ؟!

عندما مات الملك الصالح ، كانت حالة الميدان عبارة عن حرب عصابات من جهة المصريين ، وفترة تربص من جهة الصليبيين . وكانت فرق الفدائيين المصريين تهاجم خطوط الصليبيين ليلا أو في القيلولة ، فتجندل منهم المئات ، وتأسر منهم العشرات ، وتعود معها أنباء خطيرة أو أسرار عظيمة .

وعندما وليت شجرة الدر الأمر عن زوجها سراً ، مضت على نفس الأسلوب ، فكانت خطتها أن تناوش الصليبيين ، بحيث لا تترك لهم فرصة يهجمون فيها هجوماً شاملاً ، أو تتركهم يستريحون ، ويشعرون أن غزو النيل نزهة لا تكلفهم شيئاً . وإنما مضت على أن تعكر عليهم صفهم ، وتشعرهم أن المقام بأرض النيل دونه الموت المحقق .

من أجل ذلك مضت على تغذية حركة المقاومة بالأسلحة والمؤن والذخائر والرجال .

وكانت تتلقى كل يوم التقارير من الميدان ، فتنظر فيها ، وتقضي برأيها ، وتشير بما يتبع ، كل ذلك على أنه صادر من الملك الصالح ، وعن طريق الأمير فخر الدين .

ورأى الأمير فخر الدين ان الفرصة قد لاحت ليرد اليه اعتباره ، فصح عزمه على أن يخلص لوطنه ، ويكيد لعدوه كيداً لا يخيب . فكان يقود المعركة قيادة القائد العسكري الخبير ، ويلقي بأفواج الفدائيين الى منشآت العدو ، يخربون وينسفون ويأسرون ويقتلون .

واطمأنت شجرة الدر الى خطتها ، وانشرح صدرها إلى أمانة فخر الدين وإخلاصه ، ومضوا على هذا الحال ليالي وأياماً !.

- ١٣ -

ضباط المماليك يرتابون؟!

في مقر القيادة العامة للقوات المسلحة بالمنصورة ، جلس كبار الضباط ، من المماليك البحرية ، الذين تحولوا من قلعة جزيرة الروضة ، الى المنصورة ، بناء على

أوامر الملك الصالح ، عندما أمر بتحرك القوات المسلحة كلهـــا الى المنصورة للقاء الأعداء .

جلس الضباط يسمرون ليلا ، بعد أن فرغوا من أداء واجباتهم العسكرية ، فقال كبيرهم ويدعى أقطاي : لست أدري يا اخواني ما الذي دعا الملك إلى تقريب هذا الذي يدعى فخر الدين ؟!.

فقال بيبرس وهو من المماليك البحرية البارزين ، وقائد الحرس الملكي : لأنه صالحي أيوبي مثله وأنت لست كذلك ؟!.

قال اقطاي : ماذا تعني ؟!

قال بيبرس : أعني أن الدم الأزرق يجري في عروقه !.

قال اقطاي : ان الإسلام سوى بين الناس ، فلا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى .

قال بيبرس : ولكن الناس لا ترى ذلك ، انهم لا يرون منه إلا أنه ابن عم الملك ، وحفيد صلاح الدين .

قال اقطاي : الناس سواسية كأسنان المشط .

قال بيبرس : هذا قول رسول الله ﷺ ، أما الناس فلهم قول آخر .

قال اقطاي : أذكر حديثاً نبوياً سمعته من أحد الشيوخ الصالحين قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله عز وجل : جعلت لي نسباً ، وجعل الناس لهم نسباً ، أما نسبي فإن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وأما نسبهم فالمال : فاليوم أرفع نسبي وأضع نسبهم .

فتنهد بيبرس كأنما ينشق غيظاً ثم قال : انهم لا يرون لنا فضلا مهما صدر عنا من بطولات وأعمال ، فنحن في تقديرهم وتفكيرهم المماليك الأرقاء ؟!

فتدخل ضابط آخر فقال : يخيل إلي أن الملك غـــير موجود في قصره بالمنصورة ؟ .

فقال ضابط كان ينصت باهتمام إلى حديثهم : ولم لا يكون الملك قد مات ؟ هل يعقل أن يحتجب عن الناس شهوراً لا يراه أحد ولا يرى أحد ؟!.

قال اقطاي : لله درك أيها الضابط ، هذا ما كان يدور بخلدي !

قال بيبرس : أنتم تلعبون بالنار ... لو نقل عنكم هذا الحديث لضربت أعناقكم بأمر الملك الصالح كما ضربت أعناق ضباط حامية دمياط .

قال اقطاي : لا تكن جسوراً في مقالك يا بيبرس ، هذا مجرد دردشة .

قال بيبرس : أنا لا أسمح لنفسي أن أسمع مثل هذا الكلام . ونهض ليرحل عنهم مغضباً ، فاحتجزه اقطاي وهو يقول : ماذا ترى يا بيبرس ؟.

قال بيبرس وهو ما زال على غضبه : أرى أن مولاي السلطان على خير حال ، وإنه مريض فعلاً ، وإن صحته لا تسمح له أن يقابل أحداً . ألا تذكرون انه حمل في محفة الى المنصورة ؟.

فقال الضابط الذي ألقى قنبلة موت السلطان من قبل: بيبرس .. بيبرس.. هل من عادة السلطان أن يحتجب شهوراً لا يراه أحد ؟

قال بيبرس : وهل من عادة الضباط أن يشيعوا وفاة السلطان بغير دليل أتاهم ؟. وهل هذا هو التعبير عن مدى اخلاصك لمليكك ؟. وهل تعلم أن هذا سيكلفك رقبتك ، وإنني أول من يحتزها ؟!.

قال اقطاي : بيبرس جندي مخـــلص ، إلا انه له عقل كالحجارة أو أشد قسوة .

قال بيبرس : وأنا أفخر بإخلاصي لمولاي ، ولا أقبل عنه مثـــل هذه الشائعات ...

قال أقطاي : إذاً بماذا تفسر كثرة تردد فخر الدين على القصر ؟

قال بيبرس : لا شأن لي بذلك .. أنا جندي ، والجندي لا يتدخل في السياسة

قال أقطاي : أليس لك عقل يفكر ؟!

قال بيبرس : أفكر في دائرتي ، وليس من حقي أن اخرج عنها .

قال أقطاي : دعونا من بيبرس .. قائد صعب المراس ، صلب التفكير ..

قال بيبرس : ترفعون عقائركم في قلب القيادة العامة للقوات المسلحة بوفاة السلطان !؟

قال أقطاي وقد خاف خوفاً شديداً : اسكت يا بيبرس اسكت ..

قال بيبرس : اسكت .. ولكن هذا سوف يكلفنا غالياً ..

وهنا تدخل أحد الضباط الجالسين فقال : اقترح اقفال باب المناقشة الآن على الأقل ... .

وأقفلت هذه المناقشة العابرة ، التي لا تدل على شيء إلا سفسطة الفارغين عندما يلتقون ، ويختلقون ما يملأ فراغهم .

— ١٤ —

لويس يبث جواسيسه ؟!

وبينما كانت القيادة العامة للقوات المصرية المسلحة ، في حيرة من أمر احتجاب الملك الصالح ، طيلة هذه الشهور ، كانت القيادة العليا للقوات الفرنسية الصليبية وعلى رأسها الملك لويس التاسع في حيرة أشد من حيرتها .

وفي الخيمة الحمـــراء التي ضربت للملك لويس على شاطىء البحر بدمياط ،

واتخذها منذ نزل إلى البلاد مقراً لقيادته العليا ، في تلك الخيمة جلس لويس يشاور قادة جيشه في الأمر .

قال لويس : ألا ترون أن أخبار الملك الصالح قد انقطعت منذ شهور !؟

فقال الأمير أرتوا شقيق الملك: شيء عجيب حقاً . انقطاع أخبار هذا الملك؟

قال لويس : لعله مريض مرض الموت ، كما كنت أنا مريضاً في فرنسا منذ شهور كذلك ؟. يبدو أن الملوك دائماً يمرضون ؟!.

قال أرتوا : تلك ضريبة الترف أيها الملك .. يفرضها القدر عليهم لما يمتصونه من دماء الفقراء والمستضعفين ظلما وعدوانا .

قال الملك لويس : إن ذلك لحق يا أرتوا .. فما أكاد أخرج من مرض إلا لأستقبل مرض !.

قال أرتوا : انظر إلى جنودك الصغار ، تبرق عيونهم صفاء ، وتتفجر وجوههم رواء ، وينقضون على الطعام يلتهمونه التهاما ، وهم يضحكون ويمرحون على أشد ما يكونون سعادة وحيوية . ثم انظر الى نفسك كيف تعاف الطعام ، وتزهد في كل ما يقدم اليك ... ثم انظر الى وجهك كيف يبدو ناحلا هزيلا ؟!

قال الملك لويس وقد كان من قبل قديساً حكيما : تلك قسمة الله العادلة ، أعطى الفقراء الحياة ، وأعطى الأغنياء بلاء الحياة !.

قال أرتوا : أي والله .. ولكن الناس يتدافعون عن الفقر ، فراراً منه إلى الغني ، وما يشعرون أن في الترف هلاكهم ؟.

قال لويس : لقد خرجنا عن الموضوع .. فلنعد الى أمر الملك الصالح ، وإني أخشى أن يفيق من مرضه ، ويعود الى الحياة ، ويجمع علينا الجيش والعربان والمطوعة وعندئذ يتحتم علينا الجلاء عن بلاد النيل قهراً .

قال أرتوا : لقد جاءت الأنباء أمس بأن هناك شائعات ، مجرد شائعات ، لا ترقى الى مقام الصحة ، عن وفاة الملك الصالح .

قال الملك ومن جاءك بها ؟.

قال أرتوا : العيون التي نبثها كل ليلة ، تتسمع الى أخبار المصريين .

قال الملك : احذر عيونك يا أرتوا ، انهم يكذبون كثيراً ، ويضطرون الى تغطية فشلهم بأكاذيب يختلقونها اختلاقا . إن أفشل الملوك ملك يؤسس ملكه على ما ينقله اليه جواسيسه الأفاكين . ولكن الملك كل الملك هو الذي ينظر في أخبار عيونه نظرة المدقق المحقق ليستخرج منها صحيحها من زيفها .

قال أرتوا : ذلك كله قد فعلته ، وقد عارضت أخبار جواسيس الناحية الشرقية بأخبار الناحية الغربية ، فرأيتها كلها تجمع على أن الملك الصالح ربما يكون قد مات .

قال لويس : شائعات شائعات .. هيهات هيهات .. تلك أمانيكم وأوهامكم، وإن المرء إذا رغب في شيء ولم يتحقق له تصوره في خياله حقيقة واقعة .

قال أرتوا : أمر مولاي .. ولكنه شيء أرى لزاماً علي أن أبلغه الى مسامعكم .

قال الملك : انظر يا أرتوا .. ليس كل ما يتمنى المرء يدركه .. نحن نتمنى موت الملك الصالح ، لأن موته يمكننا من دخول البلاد ، إن المصريين جميعاً قد اجتمعوا على قلب رجل واحد تحت قيادته ، وجاءوا وهو على رأسهم إلينـــا يهرعون . وآية صلابته وبطولته أنه أعدم قادة حامية دمياط جميعاً ، وأمر بحشد جميع القوات المصرية تجاه دمياط ، وجاء الينا رغم مرضه محمولاً في محفة لقد كان موقفه هذا دافعاً دفع الشعب ليتجمع تحت لواءه .

قال أرتوا : نعم .. فإن الشعوب تحب القائد العنيد ، عندما يتصلب أمام أعدائه ، فترى فيه آمالها وأحلامها قد تجسدت في وقفته الرائعة .

قال الملك لويس : لقد كنت أظن أن نزولنا بأرض دمياط ، واحتلالنا لها سيجعلهم يستسلمون ؟.

قال أرتوا : ومتى كان ذلك في يوم من الأيام من العرب ؟؟ لقد نزلت أوروبا بأمرها في سواحل الشام ، وأسست أماراتها اللاتينية بها ، ومكثت بها تسعين عاما ، تمدها بالجيوش والمدة ، ثم جاء صلاح الدين فجندل جيوش أوروبا بأكملها في معركة واحدة هي معركة حطين ؟. إن العرب لا يستسلمون لأن دينهم يأمرهم دائماً بالجهاد ، ويعدهم عليه بجنة عرضها السماوات والأرض . وهم يحفظون جيداً قول رسولهم محمد « الجنة تحت ظلال السيوف » .. فهم لهذا يتسابقون الى الشهادة في ساحة الميدان ، كما يتسابق الغرب الى حفلاته الراقصة أو أشد شوقاً !..

قال الملك آسفا : اعلم ذلك ... واني لأرجو أن تكون شائعة وفاة الملك الصالح صحيحة ، فنربح بذلك أكثر المعركة ، لم يلبثوا بعدها أن يتفرقوا فيسهل علينا تمزيقهم ارباً اربا .

قال أرتوا : أظن ذلك صعب المنال ... فهم يتجمعون لله ولا يتجمعون للملك الصالح ...

قال الملك : أنت حديث عهد بالسياسة يا أرتوا ... نحن معاشر الملوك نعلم أن الشعوب كالأغنام تتفرق في شعب الجبال اذا غاب عنها راعيها .

قال أرتوا وقد ادهشته وقاحة لويس : ولكنهم ليسوا كذلك إذا جاءهم راع غيره ، فساسهم خيراً من سابقه ؟!

قال لويس : لن ندع لهم فرصة يفيقون فيها لاختيار السلطان الجديد . سنضربهم الضربة القاضية اذا مات الملك الصالح .. قبل أن يفرغوا من دفنه .. وتلك هي الخطة السرية يا أرتوا .

قال أرتوا في تفكير : ولكن ما السبيل الى التأكد من أخباره ؟!

قال لويس : اليك الخطة .. أفضي بها الى شقيقي أرتوا .. أقرب الناس الي في هذه الحملة ، أنصت ..

وبدا على الأمير أرتوا أنه يريد أن يتكلم ، فماجله الملك لويس : الخطـة الآن أن نبث عيوننا تستوثق من الخبر .. ابعث الفتيات الجميلات الفرنسيات وغير الفرنسيات ، الى الخطوط الأمامية ، حتى اذا جاء الفدائيون المصريون ليهاجموا خطوطنا ، وقعن أسيرات في أيديهم ، وبعدها يسهل عليهن الحصول على أخبار الجيش المصري ، بما لهن من سحر وفتنة !

- استمع يا أرتوا .. حاول أن تشتري بعض المصريين .. وتستعملهم ليأتوك بأخبار جيشهم وملكهم ، ابعث بطول الجبهة بالجواسيس الفرنسيين ، ودعهم يتصرفون بحرية ليعودوا الينا بالأخبار ..

فانتفض أرتوا وصاح بأخيه : لويس ؟. كأنك تجهـــل المصريين .. انهم لا يبيعون بلادهم بثمن مهما كان ذلك الثمن . لقد حاولنا أن نشتري ولو رجلا واحداً منذ نزلنا بهذه البلاد ، فعز علينا الشراء . انهم يرون الخيانة مرادفة للكفر ، فكما يستحيل على أحدهم أن ينتقل من دينه الى دين سواه ، فكذلك يعز عليه أن ينتقل من وطنيته الى الخيانة . وأخشى ما أخشاه أن تضيع أموالنا هباء ولا نستطيع الحصول على خائن واحد في البلاد المصرية ؟.

وأما من جهة ارسال الفرنسيات الساحرات ليقعن أسيرات في أيدي المجانة المصريين ، فإنك تعلم أنهم يقتلون الأسيرات فور وقوعهن في أيديهم باعتبارهن محاربات يحل قتلهن .

قال لويس : أو لو كانت الأسيرة شقراء فرنسية ، تفتن الراهب ، وتخرجه من عزلته ؟؟

قال أرتوا : انهم يعلمون ما لنسائنا من قدرة على الفتنة ، ولذلك أصدرت القيادة العامة للقوات المصرية المسلحة أمراً صريحاً بقتل كل فرنسية تقع في الأسر وحكمة ذلك الأمر ظاهرة ، هي منع الفتنة في صفوف الجيش .

قال لويس : يا لها من حكمة قضت على خطتنا يا أرتوا ؟!

قال أرتوا : ألا تذكر ذلك السـرب من الفرنسيات الحسناوات عندما أمرناهن أن يخرجن الى خط النار ؟.. فذهبن يغنين ويتمايلن .. فما ان رآهن الفدائيون حتى أحاطوا بهن ، وما ان رأوا منهن التضاحك والتمايل بأيديهن ، حتى انقضوا عليهن يقتلوهن ؟؟

قال الملك : لم يبق لنا الا أن نكثر من الجواسيس لعلهم يظفرون بشيء عن الملك الصالح .

قال أرتوا : وسوف ليطول بك الانتظار أيها الملك .. لأن هذا هو الرأى المعقول .

- ١٥ -

ذيـوع الخـبر ؟!

إلا أن المناقشة التي دارت بين قادة المماليك ، وأقفل بابها ، وانفضوا عنها، لم تذهب أدراج الرياح ، وإنما ذهب كل ضابط الى شأنه ، وفي رأسه دوامة من الاحتمالات تتقاذفه ذات اليمين وذات الشمال .

كانوا جميعاً هكذا إلا بيبرس ، فإنه لم يكن يدور في خلده الا شيئاً واحداً، هو أن مليكه الملك الصالح على قيد الحياة ، لم يمسسه سوء . وكان ذلك الاحتمال هو الاحتمال الوحيد يستطيع أن يتمثله ، أو أن يتخيله . أما أن يتصور شيئاً سواه فذلك أمر لا تطيقه أعصابه . انه قضى حياته في خدمة مولاه والاخلاص له ، حتى ترقى آخر الأمر رئيساً للحرس الملكي ، وهو لا يقر من حياته إلا أنه يؤمر فيطيع ، ويلقي اليه الأمر فينفذه في اخلاص !.

أما أقطاي ذلك الفارس المجرب ، والقائد المحنـك ، الذي وكل اليه أمر رئاسة المماليك ، فخبرهم وخبر من ألاعيب السياسة ، ودهاء الحاكمين ما لم يختبره

بيبرس ، أما هذا الفارس فإنه يشك في وجود الملك الصالح على قيد الحياة ..
واستولى عليه خاطر هو أقرب ما يكون إلى الحقيقة ، أو كذلك كان يتصور أنه الحقيقة ، ذلك الخاطر هو أن الملك الصالح قد مات فعلاً وانما تكتم شجرة الدر عنهم نبأ وفاته لحيلة تريدها ، اتفقت عليها مع فخر الدين . وكان هناك خاطر آخر يراوده حيناً وحينا ، وهو أن الملك الصالح لم يمت وانما يحتضر ، وأنه اصابه ما يصيب المحتضر ، من تخريف وعدم القدرة على احكام الأمور . وجلس أقطاي في فراشه في خيمته ، ولم يكن معه إلا ذلك الضابط الذي ألقى قنبلة وفاة الملك في نادي الضباط ولم يقبلها منه بيبرس . قال أقطاي وقد اطمأن الى انسياق ذلك الضابط الشاب معه ، ليس من شك أن الملك ألم به أمر منعه عنا وعن ولاية أمر الدولة .

قال الضابط : هذا ما أميل اليه ..

قال أقطاي : انه قد انقضى الآن ثلاثة أشهر ونحن لا نعلم عن الملك الا هذه التوقيعات التي ترد الينـــا لتنفيذها ، الا أنها توقيعات لا تسري فيها حرارة صاحبها . ليس فيها تلك الآراء السديدة ، ولا تلك الأوامر الجريئة التي تعودناها من الملك الصالح .

قال الضابط : ثم انظر الى سياسة الميدان انها تكاد تكون شبه جامدة . فمن المعلوم أن الملك الصالح أعلن التعبئة العامة منذ شهور عديدة ، وجمع القوات النظامية ، وقوات المتطوعين في الجبهة ، ليشنها حرباً شاملة على قوات الغدر والخيانة . الا أننا جميعاً ننتظر حتى الآن ذلك الهجوم ولا هجوم ، وننتظر أن ننازل أولئك الصليبيين ولا نزال !..

قال أقطاي : خصوصا بعد الهزيمة التي تسبب فيها ذلك الجبان فخر الدين ، عندما أخلى دمياط وتركها لقمة سائغة سهلة في أفواه جيش لويس . إن دمياط لو كانت تحت إمرتي لناضلت بها الغزاة عامين على الأقل ، كما حدث ذلك أيام

الملك الكامل ... دمياط الحبيبة التي قهرت الصليبيين اكثر من مرة يضيعها فخر الدين في ساعات !. لقد كان ينبغي ان يقتل كما قتل غيره من ضباط الحملة ، ولكنه نجا من الموت بسبب شفاعة شجرة الدر ؟!

قال الضابط الشاب : أعتقد ان فخر ليس بخائن ، وإنما هو تصور انه بتقهقره إلى « أشمون طناح » يستطيع أن يستدرج الصليبيين الى الداخل ، ثم يدخل معهم في معركة فاصلة ، تقضي عليهم الى الأبد ، ولكن تصوره جاء مخـــالفاً للواقع ، فإنه بانسحابه أضعف الروح المعنوية في صفوفه ، كما اضطر الأهالى أن ينزحوا فارين من دمياط ، مما أربك قواته ، وأشاع الفوضى في القطاع كلّه ..

قال أقطاي : ذلك عار ينبغي ان يمسح عن جبين الشرق العربي . لا ينبغي ان يقال ان العرب هزموا بعد صلاح الدين . ينبغي ان نلقي على هؤلاء اللصوص الذين جاءوا من بلادهم ليدنسوا أرضنا درساً ، يعلم الأجيال من بعدهم ان أرض العرب للعرب ، وان من فكر في اقتحامها فقد فكر في اقتحام الموت .

قال الضابط الشاب : كلنا ذلك الرجل ... كلنا يتمنى اليوم الذي يلتقي فيه الصليبيين ليثأر لبلده ، ويمسح العار عن وطنه . ولكن الأمر كما ترى ، مجرد حرب عصابات لا ترجح كفة أحد الفريقين . وماذا يخسر لويس إذا مات من عنده كل يوم عشرات من الجنود !. انه يستطيع ان يستقدم من عكا أو من قبرص غيرهم . إن أوروبا كلها على استعداد ان تمده بكل شيء ، لو علمت انه يوشك إن يدخل القاهرة ، ويذل أهل النيل ، .. نريدها حرباً ، نريدها معركة فاصلة قاصمة ، تضع حداً لهذا العبث . نريدها معركة كمعركة حطين ، نجندل فيها كل ما جمعوا ، ونأسر فيها كل ما بقى لهم .

قال إقطاي : اصبت الحز يا طومان .. وماذا يخسر لويس لو فقد كل يوم عشرات الجنود ؟.

ولكنه يخسر كل شيء ، وتخسر أوروبا كل شيء ، لو دخلنا معه في معركة فاصلة ، وكان النصر حليفنا .

قال طومان : وهذا هو رأي جميع الضباط الصغار

فقال اقطاي : وهذا هو رأي جميع الضباط الكبار .

قال طومان : فهو اجماع اذاً ؟.

قال اقطاي : هو أكثر من اجماع .. هو ارادة الشعب العربي كله ، يريد ان يثأر لدمياط ، يريد أن يلقي بالغزاة في البحر الذي جاءوا منه .

قال طومان : اذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر .

قال اقطاي : لقد التقت ارادة الشعب مع ارادة القوات المسلحة .

قال طومان : فلماذا اذاً لا يكون ذلك ؟.

قال اقطاي : لأن شجرة الدر وفخر الدين لا يريدان ذلك .

قال طومان : ما كان لها أن يقفا في سبيل ارادة الشعب .

قال اقطاي : وسيكون هذا هو الموضوع غداً في نادي الضباط .. وأنت يا طومان عليك أن تعتبر ما دار بيننا سراً لا يجوز اباحته .

قال طومان : طومان لا يبوح بشيء أيها القائد ؟!

وانصرف لتوه ..

– ١٦ –

اجتماع سري في نادي الضباط ؟!

دعا الفارس اقطاي كبار المماليك إلى اجتماع عاجل بنادي الضباط ليلاً .

وحضر المماليك جميعاً ذلك الاجتماع .

وقام اقطاي يشرح لهم وجهة نظره ، وكان بما قال لهم : ايها الأخوة .. أنتم ترون بأعينكم كيف تساس الأمور في غيبة مولانا الملك الصالح ، فإنا لا نرى في قصره بالمصورة إلا وجه فخر الدين ، صاحب الهزيمة المشهورة ، يكاد هذا الرجل يستبد بكل شيء هو وشجرة الدر ، وهما لا يريدان أن يعلنوا حقيقة الأمور ، هل الأمور تدبر بمشورة الملك أم بمشورتهما ؟ ثم لماذا يحتجب الملك عنا ؟ هل يعقل أن يحتجب الملك شهوراً عن رعيته ؟ اذا كان مرضه يمنعه من تدبير الأمر فليحمل عنه رجل آخر ذلك العبء ، على ان يكون أحداً غير فخر الدين ، فنحن لا نثق في فخر ، بعدما كان منه في دمياط ، ثم لماذا يقرب الملك فخر الدين ، ولا يقرب اليه أحداً منا؟ ما لهذا الفخر الدين قد استأثر بكل شيء ؟ ألأن شجرة الدر راضية عنه ؟ ثم أين دور المماليك البحرية في الموقف أيها الأخوة ؟.

هل يكون منـــا موقف المتفرج ؟ هل نقف مكتوفي الأيدي حتى يحوز لويس البلاد ؟!

أشيرو علي ؟.

فصاح طومان : ينبغي أن يتألف وفد منا ويذهب لمقابلة الملك ، ويصر على ذلك ليتبين الحقيقة .

قال أقطاي : سوف لا تسمح له شجرة الدر بالدخول .

قال طومان : اذاً يكون بعدها ما يكون .

فصاح بيبرس : وماذا يكون أيها الأحمق ؟ هل يعقل أن يسمح لك بالدخول على مريض يشرف على الموت ؟.

قال طومان : نريد ان نتأكد من حالة الملك ليس إلا ..

وما زال أمراء المماليك يداولون الأمر بينهم حتى اتفقوا أخيراً على أن يذهب اقطاي ومعه اثنان من كبار ضباطهم ، ويطلبون مقابلة الملك لأمر هام ، فإن أبوا عليهم ذلك ، أعلنوا شجرة الدر انهم سيدخلون اليه بالقوة ، وأن جميع المماليك البحرية يؤيدونهم في ذلك .

- ١٧ -

مقابلة هامة ؟!

بدأ القصر الملكي بالمنصورة هادئاً كعادته ، يحف به كوكبة من الفرسان الملكية ، التي تتناوب حراسته . وكانت شجرة الدر تجلس على أريكتها ، تستمع الى ذلك القارىء يرتل آيات من الذكر الحكيم ، على اريكته الخاصة التي صنعت على طراز عربي ، في أقصى البهو ، بينما جلس هنا وهناك بعض وصيفاتها المختلفة الألوان .

وفجأة دخل أحد الحجاب ، وهو يلهث من شدة ما به من غضب وقال : سيدتي .. ان الفارس اقطاي ومعه اثنان من كبراء المماليك ، يريدون أن يقتحموا علينا القصر ، ويروا بأعينهم عنوة مولاي السلطان ؟. فقطع القارىء قراءته ، ووقفت شجرة الدر وقد اصفر لونها ، كأنها لا تدري ماذا تفعل ، ثم قالت وهي تنتزع الألفاظ من بين أضراسها : ماذا حدث يا غلام ؟.

قال الحاجب : جاءوا بغير اذن من أحد ، فلما استقبلهم الأمير فخر الدين ، قالوا في حدة : حتى انت يا فخر الدين ؟. فلما استمهلهم قالوا في تحد : والله لو منعتنا لنحتزن عنقك .

فازداد اصفرار وجهها ، وأماطت اللثام عن ذقنها ، وقالت في لهجة الأمر : وكيف يدخلون على نساء محجبات لا يحل لهم ان يروا منهن وجهاً ؟ اذهب اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منهــــا أذلة وهم صاغرين ، نادني بفخر الدين .

فذهب الحاجب يستبق الباب ، وغاب لحظة ، وعاد ومعه فخر الدين .

قالت وقد عاد اليها هدوءها شيئاً قليلا : أيها الأمير .. ماذا ترى ؟.

قال فخر الدين : ارى ان نأخذهم باللين ، فإني أشم من ورائهم ريح الفتنة والتدمير .

قالت وقد ساءها منه ما ارتأى : أنت تشير بذلك ؟! عجباً أيها الأيوبي ؟!

قال : سيدة البلاد .. ان الأمر لا يحتمل الخلاف ، والعدو بالأبواب .

قالت له وقد ألفت نفسها في الميدان وحيدة : ليكن ما تريدون أيها الرجال ، ولكن سوف تندمون فيما تستقبلون من أيام !.

قال فخر الدي : أرى ان نطلعهم على الأمر ؟.

فصاحت شجرة الدر : كأننا لم نفعل شيئاً ، اذا اطلعوا على الأمر ضاع كل شيء ، وتحدثوا به الى الناس ، وانتقل الخبر الى العدو .

فقال فخر الدين : انهم ثلاثة - اقطاي وركيلاء - وهم بمنزلة من العقل لا تسمح لهم بإفشاء أسرار الدولة .

قالت شجرة الدر : لو دخلوا فيه بأنوفهم ، خرج الأمر من يدنا .. سيكون لهم بعد ذلك في كل شيء رأي ، وربما خالفونا فيما نرى فيكون ما لا نريده ان يكون .

قال : الأمر لك فانظري ماذا تأمرين ؟.

قالت : أرى ان نجتمع بهم .. اذهب ونبئهم اني قادمة اليهم .

- ١٨ -

مقابلة عاصفة ؟!

كان جو الإستقبال بطرازه العربي الساحر ، يبدو كأنه قطعة من نور

الضحى – تشرق فيه الشمس من كل نوافذه فتلتقي أشعتها بشماع زجاجه الملون فيمكسان على ارضه من ألوانها العجب العجاب .

وكان الفارس اقطاي وصاحباه ، يجلسون على اريكة عريضة من ارائكه العديدة .

اما الأمير فخر الدين ، فكان يجلس وحده ، على حذر منها ، مما يحس من نظراتها العميقة النافذة الموجهة الى عينيه .

كانت عيونها جميعاً مركزة على وجهه ، كأنما يستوضحونه خبراً يكتمه عنهم ؟.

وكأنه قد احس ذلك منهم ، فقال لهم معتذراً : لعلكم تظنون اني اكتم عنكم امراً ؟ كلا والله .. ان هي إلا مصلحة البلاد العليا ، أملت علينا ان نصمت الى حين .

قال اقطاي : كأن الأمر يعنيك وحدك يا فخر الدين ؟. اديكتاتورية في الإسلام ؟.

قال فخر الدين : ما اردنا إلا الخير للبلاد .

قال اقطاي وهو يهدد بقبضة يديه : انها بلادنا كما هي بلادكم ، ولا احد احق بسياستها من الآخر ؟.

وهنا دخلت شجرة الدر في حجابها الإسلامي ، لا يرى منها إلا عينيها ، وبعض وجهها ، فانبعثوا واقفين صامتين ، كأن لم يكونوا في حديث وعراك !

قالت الشجرة : السلام عليكم ورحمة الله ..

قالوا وقد اخذوا يجلسون لما رأوا منها الجلوس : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ومغفرته .

قالت : ماذا الى بكم ؟.

قال اقطاي : جئنا نسأل عن مولانا السلطان كيف حاله ؟.

قالت : مولاكم بخير .

قال اقطاي : لا يكفينا انه بخير .. نريد ان نراه بأعيننا ، وتطمئن قلوبنا ان قد صدقتنا .

قالت : أو لا تصدق شجرة الدر يا اقطاي ؟.

قال اقطاي : نحن نشك في الأمر !

قالت : باسم من تتكلم يا اقطاي ؟

قال : اتكلم باسم المماليك البحرية جميعاً .

قالت : كأن الأمر اصبح حديث المدينة ؟.

قال : كلا .. بل حديث كبار قادة الجيش ، الذين يحسون من امور الميدان ما لا يحسه الناس ، ان الميدان شبه ميت ، اللهم إلا هذه التخطفات التي ملها الناس كل يوم ، نريد هجوماً شاملا ، ولا يكون هذا إلا بأمر من مولانا السلطان الملك الصالح ، وهذا ما جئنا من اجله .

قالت الشجرة : انتم تقامرون بحياتكم يا اقطاي .

قال : المقامرة بحياتنا خير من المقامرة بحياة شعب بأكمله .

قالت وقد رأت الجد فيما يريدون : ولكن السلطان لا يريد ان يرى احداً ، ويمكنني ان انقل اليه رغباتكم .وأعود ومعي الرد عليها .

قالوا جميعاً : نحن نريد مقابلة السلطان .

قالت : وهذا مستحيل .

قالوا وقد ابعثوا غاضبين : نحن نريد مقــــابلة السلطان ، وإن لم تفعلي فعلناه بالقوة .

قالت وقد ساءها ما يقولون : انتم لا تفكرون . اجلسوا .. اجلسوا .. ماذا تفعلون بلك لا يعقل شيئاً مما يلقى اليه ؟ انه في غيبوبة تامة لا يفيق .

قال اقطاي : وماذا يمنعك ان نراه على حاله ؟.

قالت الشجرة : انه لا يسره ان يراه الناس على ما هو عليه .

قال اقطاي : ان من ورائي المماليك جميعاً ينتظرون فصل الخطاب في هذا الأمر ، اما رؤية السلطان ، وإما يكون ما لا يحمد عقباه !.

قالت الشجرة : اقطاي ؟. يا أمير المماليك .. هل تقدر المسئولية ؟.

قال اقطاي وقد استفزه ما قالت : ألست موضع ثقة مولاي ؟.

قالت الشجرة : إذاً مر صاحبيك ينتظروا بالبهو المقابل .. وسوف أكشف لك الحقيقة ليطمئن منك الفؤاد .. ثم بكت ..

فصاح اقطاي : اذهبا .. وانتظراني هناك ..

فخرج صاحباه يستبقان الباب .. وغابا عن الاجتماع .

قالت شجرة الدر وليس معها غير فخر الدين واقطاي : أيها الفارس العربي .. قم واتبعني أنت وفخر الدين .

ومضت بهما في ابهاء القصر ، حتى وقفت على سرير الملك .

وأشارت اليه وقالت : هذا هو الملك يا اقطاي !.

فاندفع اقطاي يكشف الغطاء عن وجه سيده ، ليتأكد بنفسه من حالته ، وكم كانت دهشته عظيمة عندما رأى تمثالاً من خشب يتمدد تحت الأغطية !.

قالت شجرة الدر : ماذا ترى ؟

قال : أرى خشباً مسندة .. أين مولاي السلطان ؟.

قالت : مولاك توفاه مولاه ..

قال اقطاي وهو لا يدري من الأمر شيئاً : أنا لا افقه كثيراً مما تقولين ؟

قالت : تحدث يا فخر الدين ..

قال فخر الدين . في ليلة النصف من شعبان ، في السحر ، مات السلطان الملك الصالح في هذا المكان ، وشجرة الدر تجلس الى جواره .

قال اقطاي : منـــذ ثلاثة شهور كان موته ، ونحن لا نعلم ؟! انا لا اصدق هذا المقال .

قالت الشجرة : إن لك ألا تصدق ، وليتك لا تصدق ، لقد كنا نريد أن يظل الجميع يجهلون ، حتى لا يعلم الأمر الأعداء .

قال فخر الدين : إن الملكة كانت حكيمة غاية الحكمة عندما اخفت النبأ حتى تنتهي المعركة مع الصليبيين .

قال اقطاي : ولماذا أطلعتك انت من دوننا ، وآثرتك بذلك من بيننا ؟.

قالت : لا لشيء إلا لأنه هـــو الذي يصلح لتمثيل المهمة التي وكلت اليه دون غيره ؟.

قال اقطاي : أم لأنه ..... ونحن لسنا كذلك ؟.

قالت الشجرة : كلا والله .. ما لفخر الدين فيها من مطمع .. ولقد عرضتها عليه فأبى .. وقال مثلي لا يصلح لها ..

قال اقطاي وقد ارتفع الى مستوى الموقف ، فاختمت منه أهواؤه : أيتها الملكة .. أنت امرأة عظيمة حقاً ... وأنت يا فخر الدين .. كم أنا آسف لما ظننته فيك .. أنت تقوم بدور مضن شاق طيلة هذه الشهور ، وإن أشق الأمور أن يعيش الإنسان في شخصيتين مختلفتين تمام الاختلاف .

قالت الشجرة : يا اقطاي .. ليس أحـــد منا يريد شيئاً إلا أن يخرج الصليبيون من البلاد .

قال اقطاي . أشهد الله انه ما دفعني إلى ذلــك الموقف إلا قلقنا على مصير البلاد .

قالت الشجرة وقد هيج الموقف أحزانها ، فامتلأت عيناها بالدموع : يعلم الله ما أحتمل من أجل بلادي ، ان امرأة مثلي فقدت زوجها ، كان ينبغي أن تتفرغ لبكاء فقيدها ، وتتلقى العزاء فيه ، ولكني كتمت كل ذلك وآثرت أن أمثل هذا الدور المقدس أمامكم جميعاً تحقيقاً للمصلحة العليا ، رغم ما تعلمون من مصادمة الكتمان لطبيعة النساء ، فإنهن يجدن الراحة في الإفضاء بأسرارهن .

قال اقطاي وهو يبكي تأثراً من عظمة الموقف : أيتهــــا الملكة .. نحن من ورائك حتى يخرج الصليبيون .. كلنا أنت الصالح .

قالت الشجرة ودموعها تغرق وجهها : اللهم انصرنا على أنفسنا وأعدائنا يا أرحم الراحمين .

قال الرجلان : آمين .. آمين ...

إلى المعسكر !؟

كان صاحبا اقطاي يجلسان في البهو على أحر من الجمر ، يضمان أيديهما على سيوفهما كأنهم يريدون بطشاً ، إذا لم يرجع اليهما اقطاي سليماً !

قال أحدهما وقد ظن أن شجرة الدر قد غدرت باقطاي ، أو اغتالته ، أو ألقته في غيابة السجن : كان ينبغي ألا نفارقه .. لقد خدعتنا هذه المرأة ؟

قال له صاحبه وهو يجاوزه : اصبر لعله يأتينا من فوره هذا ..

قال لا أظنه يعود الينا .. لقد طال بنا الانتظار .. كان ينبغي أن نرفض مفارقته رفضاً .

قال صاحبه : لو عاد الينا فبهــا ، ولو كانت الأخرى عدنا إلى أصحابنا وجئنا بهم ، نقتحم عليهم القصر حتى يخرجوه الينا حياً ، والله سوف لا يكون إلا ما نريد !.

قال صاحبه : استغفر الله .. بل ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

قال : يخيل إلي أن اقطاي الآن قــد فصلت رأسه عن سائر جسده .. آه يا أخي .. فداك أبي وأمي .. قم بنا ندخل اليهم .

فما كادوا ينتهون الى الباب حتى وجدوا اقطاي عائداً اليهم !.

قال وقد عجب لاندفاعهما : أين المسير ؟.

قالوا : كنا نريد انقاذك من أيديهم ..

قال اقطاي : أشكر لكما من صديقين مخلصين ، وهل تظنون أن الأمر يصل إلى هذا الحد ؟. تلك نزعة شيطانية يا صاحبي .. هيا بنا .

قال أحدهما : ماذا قيل لك وماذا قلت لهم ؟.

قال وقد اثر الصمت : هيا ... هيا ... سوف تعلمون .

وركب الفرسان الثلاثة خيولهم ، وانطلقوا يسابقون الريح ، حتى كانوا في قلب خيامهم بعد لحظات .

- ٢٠ -

قرار خطير ؟!

وما ان دخلوا إلى القشلاق حتى تلقـــاهم سائر الضباط بالقلق وأمطروهم سؤالا . وحملوا ينادونهم وهم ما زالوا على ظهور جيادهم : أين كنتم يا أقطاي ؟ لمــاذا استأخرتم عنا ؟ ماذا قالوا لكم ؟!

إلا انهم كانوا جميعاً قد أعياهم التعب من فرط ما لاقوا في رحلتهم ، وشدة هزهزة الخيل لهم وهم عائدين .

وترجلوا عن خيولهم ، وألقوا بلجامها إلى الغلمان ، ودخـــلوا إلى نادي الضباط ، حيث كان سائر اخوانهم في انتظارهم .

قالوا وقد ألقوا أنفسهم على الأرائك يستريحون : أين أمين السر ؟.

وجاء أمين السر يسعى ... فقـــال له أقطاي : ادع كبار الضباط إلى اجتماع عاجل .

وبعد قليل اجتمع الى اقطاي من يريد ، فأغلقت الأبواب ، وأخليت القاعة من الرقباء ، وبدأ الاجتماع .

قال اقطاي : لقد ذهبت الى القصر الملكي ، قلقـــاً حاقداً ، وعدت منه مطمئناً راضياً .

قال طومان : وكيف كان ذلك ؟!

قال اقطاي : اليكم القصة تفصيلاً وإجمالاً ... ذهبنا وطلبنا مقابلة السلطان شخصياً ، فرفضوا ...

فقاطعه طومان: من هو هذا الذي تجرأ على رفض مطالب المماليك البحرية؟!.

قال اقطاي : فخر الدين ومن ورائه شجرة الدر ...

قال طومان : تباً لهما !..

قال اقطاي : على رسلك ... ستعلمون كل شيء ...

وبدت القاعة صامتة صمت القبور ، لا تسمع فيها إلا همساً ، وكان الضباط يجلسون جميعاً وقد ركزوا اهتمامهم وعيونهم على زميلهم اقطاي .

قال اقطاي : فلما أصروا جددنا ، وأنذرناهم الإنذار النهـــائي ، إما مقابلة السلطان وإما قابلناه بالقوة ، رأوا ألا مناص من الخضوع لرغباتنا ، ودخلت بنفسي ومعنـــا شجرة الدر وفخر الدين حيث يرقد الملك ، ونزعت بنفسي غطاءه ...

فصاح أحد الضباط : فكيف وجدته ؟!

قال اقطاي : وجدت تمثالاً من خشب يرقد مكانه ، يخيل للقادم من بعيد أنه هو الملك !..

قال أحدهم : ولكن أين الملك نفسه ؟!

قال اقطاي : أما الملك ...

فاشرأبت أعناقهم جميعاً كأنما يخشون أن يكون قد أصابه ما يكرهون ...

قال اقطاي : أما الملك ...

ولم يتمالك أقطاي فانفجر يبكي ...

وهنا أدرك الجميع ما يريد أن يقول فصاحوا : مات؟!. مات ؟!. قتل؟!. ماذا ؟! افصح .

واندفع الشبان من الضباط البحرية ، واستلوا سيوفهم من أغمادها وصاحوا : نريد أن نعرف الحقيقة ؟!

قال أقطاي : أما الملك ... فقد مات !..

فساد الوجوم ... واشتد الصمت ... وكانت لحظة رهيبة ...

ثم قال أقطاي : لقد كان ذلك منذ ليلة النصف من شعبان !..

فصاح أحد الضباط وكان يحب السلطان حباً كبيراً : يا إلهي .. وكيف أخفوا موته طيلة هذه المدة ؟!.

قال أقطاي : سأواصل تلاوة القصة ... فما أن رأت شجرة الدر ما جرى حتى استدعت فخر الدين وشاورته في الأمر ، واستقر رأيها على قرار خطير .

قالوا وقد ازدادوا شوقاً إلى معرفة القرار : هجوم عام شامل على القوات الصليبية . هذا ما ينبغي أن يتقرر !..

قال وقد سره إخلاصهم لبلادهم : لا ... ليس ذلك ... وإنما نظرت شجرة الدر الى أمر البلاد فرأت أن الصليبيين بالأبواب ، توشك جيوشهم أن تقتحم البلاد كلها ، وإن اعلان وفاة الملك سيشجع العدو على الهجوم ، قبل أن يتقرر من يخلفه ، فرأت أن تجعل وفاته سراً مطوياً عن الجميع ، حتى يتحقق النصر ، وعندئذ تعلن وفاته . وقد وافقها فخر الدين على رأيها ... ولعمري انها خطة بارعة وإلهام موفق !.

قال طومان : اني لفي عجب ... كيف استطاعوا أن يخفوا عن العالم كله نبأ وفاة الملك طيلة هذه الشهور ؟!.

قال أقطاي : ذلك هو تكتيك شجرة الدر ... تلك المرأة العجيبة . لقد شرحت لي كل شيء حتى خرجت من عندها ، وأنا أشد ايماناً بعظمتها ، وعظمة الملك الصالح ، الذي اختارها شريكة حياته . ولقد غادرت القصر مصمماً على احراز النصر للبلاد !..

وهنا برزت عيناه ، واحمر وجهه ، وألقى سيفه بعيداً ، واعتلى الأريكة

التي كان يقف بجانبها ، وعلا صوته ، ثم قال في عزم شديد : لقد كنا نحارب تحت قيادة الملك الصالح أوروبا حين جاءت الى مصر ممثلة في حملة لويس التاسع لغزو بلادنا ، أما الآن ـ وقد مات الملك الصالح ، ووليت الأمر من بعده امرأة دفعها اخلاصها أن تسلك ما سلكت ، فإني أعاهدكم عهـــد القائد لجنوده في الميدان ، أن أفنى في سبيل نصرة هذا الوطن ، تماماً كما لو كان الملك الصالح في عرشه ... بل أضعاف ما كان في عرشه . أيها الضباط ، يا حماة الوطن ، ذلك عهدي اليكم ، والله على ما أقول شهيد !.

وهدأ أقطاي قليلا ليأخذ أنفاسه ثم قال : والآن أيها الأخوة ماذا ترون ؟!

قال بيبرس والبكاء يخنقه : مات مولاي ... مات البطل !..

فقال أقطاي : دع البكاء يا بيبرس ... ان مصر تناديكم الآن ... فانظروا ماذا تفعلون ؟

قال بيبرس : أرى أن نكون أولاً على قلب رجل واحـــد . لا فرق بين أيوبي ومملوك ، ولا بين عسكريين ومدنيين ، ولا بين غني وفقير ، وإنما كلنا مصريون أولاً ، وعرب ثانياً ، ومعتدى علينا ثالثاً . ينبغي أن نخلص لله في جهادنا للعدو ، لا نريد دنيا ، ولا نريد شهوة ، ولا نريد فخراً ، وإنما نريد وجه الله ، ونصرة الوطن ، وعزة العرب .

ثم شهر بيبرس سيفه ، فالتمع في ضوء الشمس ، وقال مؤكداً : أما بيبرس ففي خدمة مولاه كما كان وأكثر ، وأما دمي فقد وهبته لوطني .

فصاح طومان : ونحن جميعاً الضباط الشباب ، معكم أيهـــا الكبار صفاً واحداً ... لانريدها إلا عامة شاملة ، لا تبقي من الصليبيين ولا تذر !

قال أقطاي : اللهم قو إيماننا ، وشد عزمنا ، ووحد صفنا ...

قالوا أجمعين : آمين ... آمين .

قال أقطاع وصوت التأمين يصاعد الى السماء : هل ترون أن نمضي في الحال هكذا ؟ !

قال طومان : أيها القائد ... نحن نشكر لشجرة الدر موقفها ، إلا أن المرأة هي المرأة مهما كان الحال، ولا يقود هذا الأمر إلا رجل له عزم من حديد !

قال أقطاي : ماذا تعني ؟!

قال طومان : أقولها جريئة أكثر من الجرأة نفسها ... نريد أن تبعث إلى تورانشاه .

فتعالت أصوات الاستنكار من جميع أنحـــاء القاعة ... تورانشاه ... تورانشاه ... كيف هذا . . شاب فيه خفة يتولى مكان الملك الصالح ؟!.

قال طومان : ان جلال الموقف ، وعظمة المعركة ، يوجبان على المنحرف أن يستقيم ، وعلى المفــــارق أن يتجمع ، وإلى الشاب أن يكون رجلاً . ان تورانشاه هو ابن الملك الصالح لصلبه ، أما شجرة الدر فلم تعقب ولياً للعهد ، ولا سبيل إلا هذا !

قال أقطاي : ليس بتورانشاه من عيب بيّن ، وهو السلطان الطبيعي بعد أبيه . ولكن كيف السبيل اليه ... وهو هنـــاك خارج البلاد ... بحصن كيفا ... بعيداً عن مكان المعركة ؟!

قال طومان : إذا رأيتم أن يكون مكان أبيه فالأمر سهل .

قال أقطاي : هل توافقون على تورانشاه أيها الأخوة ؟!

قال ضابط كبير : ليس الأمر أمر تورانشاه أو غيره ، ولكن المهم أن يبقى ذلك سراً مجهولاً عن الأعداء حتى لا يفيدون من سوء الظروف .

قال أقطاي : ليس بيننا الآن من لا يحفظ السر ، والمعلوم أن هذا اجتماع

سري ، وإنه لا يجوز إباحة ما يجري فيه لأحد . ومن المعلوم كذلك اننا إذا بعثنا نستقدم تورانشاه ، فسوف يكون ذلك سراً مكنوناً .

قال الضابط المعترض : ان كان هذا فأنا أول من يوافق على تورانشاه !

فقال اقطاي : هل توافقون على تورانشاه سلطاناً مكان أبيه الملك الصالح ؟!

قال الجميع : نوافق ... نوافق ...

قال أقطاي : إذاً نبعث اليه نستقدمه إلى مصر . وسوف نكتم الأمر ما استطعنا .

- ٢١ -

شجرة الدر تعلم القرار ؟!

لم تكن شجرة الدر بالملاك المعطر ، ولا بالمرأة التي تخلبها الزينة ، وتحجبها عن حقيقة الأمور . وإنما كان لها عقل يدبر ويفكر ويقدر .

لمن أجل ذلك كانت لها عيونها في كل مكان . فما كاد ضباط المماليك يقررون استدعاء تورانشاه ، حتى كان الخبر عندها قبل أن يتفرقوا

قالت شجرة الدر لفخر الدين : أرأيت يا فخر الدين ، لقد كان منهم ما كنت أحذر ؟!

قال فخر الدين : وما ذاك يا سيدتي ؟!

قالت : لقد قرر المماليك بالإجماع استدعاء تورانشاه ليأخذ مكان أبيه ؟!

قال فخر الدين : ذلك حقه الطبيعي ، ولكن هذا ليس بالأسلوب الذي يتبع .

قالت : لقد ساءني منهم ذلك ... ومن أقطاي بالذات ... ألم يعدنا أن يظل الأمر سراً .

قال : انهم يخشون أن يتحول الملك إلى من لا يثقون فيه فيبددهم بددا !

قالت : ألم نتفق معهم على تأجيل خلافاتنا إلى ما بعد المعركة ؟!

قال : أيتها الملكة ... لا عليك ... ان كان هذا شيئاً يجمع القلوب ، ويؤلف الصفوف فليكن ما يشاؤون ، والخيرة فيما اختار الله ... وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ... دعيها لله .

قالت الشجرة : إذا لا يسبقونني اليه ... فيظن تورانشاه أن امرأة أبيه كانت تكره من يكون مكان أبيه ملكاً ... سوف أبعث اليه رسلي ، يصلون اليه قبل أن يصل اليه رسلهم .

قال فخر الدين : هذا هو الرأي ، فيحمد لك فعلك ، ولا يكون منه إلا الخير بإذن الله .

قالت : فليكن ذلك ... وقامت من فورها ، تنفذ رأيها .

- ٢٢ -

رسول إلى ولي العهد ؟!

وخاطبت شجرة الدر أعضاء بعثتها السرية فقالت : تذهبان في ملابس الأعراب ، تكتمان الأمر عن كل من يصادفكما في الطريق . وهذه هي الخيول العربية الأصيلة ، تركبونها عَدْواً إلى حصن كيفا ... هنالك في الشام ... أنتم تعرفون الطريق اليه ... وأحب أن تصلوا إلى تورانشاه ، قبل أن يصل اليه رسل المماليك البحرية .

وأوصت شجرة الدر أمير الركب وقالت : انك تؤدي أعظم خدمة لشجرة الدر إذا وصلت الى تورانشاه سريعاً ... معك تفويض سلطاني مطلق مني ، خذ ما شئت من الركائب لتكون عند الحصن في أقل مدة ممكنة .

وتناولت شجرة الدر خطاباً سلطانياً مختوماً وقالت له : خذ هذا الخطاب وسلمه لتورانشاه يداً بيد ، وإياك أن تقرأه ، أو يقرأه أحد غير تورانشاه !

تناول أمير الركب مهمـــا الخطاب ، ودسه في صدره ، ثم انثنى يحيي ، وانصرف لأمره .

وبعد قليل كان أمير الركب يقود البعثة العسكرية ، المكونة منه قائداً ، وأعضاء ثلاثة . كانوا جميعـــاً من أخلص الضباط لشجرة الدر ، إلا أنهم لم يكونوا من المماليك .

وكانوا مصريين إلا أنهم انطلقوا في ملابس أعرابية .

ولم يكن هنـــاك ما يشير إلى طبيعة مهمتهم إلا تلك الخيول السلطانية العربية الأصيلة التي يمتطونها .

انطلقوا من المنصورة ، وأخذوا طريقهم إلى الشرق ، سراعـــاً كالريح المرسلة ... تماماً كما أوصتهم الشجرة !.

- ٢٣ -

والمماليك يرسلون إليه ؟!

كان المماليك في اطمئنان تام ، من سرية اجـــتماعهم الخطير ، ولم يكونوا يعلمون إلا أن ما قرروه لا يعلمه أحد سواهم . لذلك لم يكن هناك داع يدعوهم إلى التعجيل بإيفاد بعثتهم .

ومر يومان ... وفي اليوم الثالث ، كانت بعثة المماليك قـــد تكونت من الشاب الضابط طومان رئيساً ، ومعه عضوان من رفاقه ضباط المماليك .

قال أقطاي لهم : لقد أعددنا لكم خير ما نملك من خيل أصيلة ... تأخذوا طريقكم الى حصن كيفا ، على أنكم أعراب رحل ، واحذروا أن يصادفكم جواسيس الأعداء الصليبيين . أو أن ينتقل خبركم إلى لويس التاسع .

فقال طومان : ثق اننا سنكون أخفى على الناس مما تتصور ، حتى نصل الى الأمير تورانشاه في أسرع وقت يتصور . نحن نعلم طبيعة مهمتنا وخطورتها.

قال أقطاي : نعم ... نريد أن يظل هذا الأمر سراً لا يعلمه أحد ، حتى يحضر السلطان ، ويتولى الأمر ، ويدبر المعركة .

وناوله اقطاي كتاباً مختوماً ، موقعاً عليه من أقطاي نيابة عن المماليك ، وقال له : يداً بيد ... ضع هذا الخطاب تحت ملابسك ، وقاتل دونه ان غلبتم على أمركم ... وإذا رأيت انك لا تستطيع الدفاع ، أو انك ستقع في أيدي الأعداء ، فمزق الخطاب تمزيقاً ، قبل أن تقع في الأسر . والآن اذهبوا ... على بركة الله ...

وانطلقوا هم أيضاً إلى الشرق ... الى حصن كيفا !.

- ٢٤ -

في خطوط الأعداء ؟!

كان الملك لويس يجلس في خيمته ، والملكة مرجريت تتكىء أمامه على بساط أحمر قد مد في أرض الخيمة الملكية .

وكان الافرنسيس مهموماً مغموماً قد فارقه هدوءه الذي لم يكن يفارقه .

قالت مرجريت : أيها الملك ... هل ما زلت تطمع في غزو المنصورة ؟!

قال لويس : ان الأمر يتعثر ويتعذر يوماً بعد يوم . لقد حول الفدائيون المصريون حياتنا الى جحيم لا يطاق . وما يدريك ... لعلهم يدخلون علينا الآن ، ويختطفون أحدنا !.

فالتصقت مرجريت برجلها وهي تقول : لم أر في حياتي جرأة كجرأة الفدائيين العرب .. انهم يلقون بأنفسهم ليموتوا ... لا يبالون بشيء ، ولا يهابون عدواً !.

قال الملك : لقد أشاعوا الرعب في نفوس جيشنا ، حتى أصبحت لا أطمئن الى ضباطنا أو جنودنا . لقد نزلنا دمياط ، واحتللنا جبهة عريضة من دمياط الى اشموم طناح ... ولكن ماذا وراء ذلك ؟! لم نتقدم شبراً !..

وهنا دخل الأمير ارتوا فحيا وجلس ... فقالت مرجريت لقد جاءك ارتوا ... هو أفقه مني لشئون الحرب والسياسة ... ثم حيت ومضت ...

قال لويس : ارتوا ... ماذا وراءك ؟!

قال ارتوا : أرى أن نعجل بهجوم عام شامل ، إما قضينا عليهم ، واقتحمنا المنصورة ، ودخلنا القاهرة ظافرين ، وإما كانت الأخرى فتلك ارادة الله . كل يوم يمر يزدادون قوة ونزداد ضعفاً .

قال الملك : أنا لا أستطيع المخاطرة بخطة وضعت فيها فرنسا آمالها ورجالها ، ووضعت فيها أوروبا نضالها وأحلامها .

قال ارتوا : هذا هو الحل الأوحد ، لنضع حداً لهجمات الفدائيين علينا ليلاً ونهاراً . يجب أن نضرب مراكز انطلاق وتموين الفدائيين ، وندمر القاعدة التي يستندون اليها .

قال لويس : ان الملك الصالح عنيد وسوف لا يبالي بما جمعنا له . انه يحفظ عن جده صلاح الدين تاريخه العظيم . ويحفظ كيف كان صلاح الدين يلتقي بجيوشنا وهي أضعاف جيوشه عدداً وعدة ، فيخرج منتصراً عليهـــا بصبره وعزمه .

قال ارتوا : وأين الملك الصالح من صلاح الدين ، أين الثرى من الثريا ؟!

قال لويس : هذا الشبل من ذاك الأسد ، ومن شابه أباه فما ظلم ، ان الملك الصالح يريد أن ينقض علينا ليثتقم لشرف دمياط .

قال ارتوا : إذاً ليس أمامنا إلا خطة واحدة ... هي مهاجمتهم قبل أن يهاجمونا ، ويلقوا بنا جميعاً إلى البحر الذي جئنا منه !.

قال الملك : وأنا لا أستطيع الموافقة على ذلك الهجوم إلا في حالة واحدة ، هي أن تحمل إلي نبأ وفاة الملك الصالح .

قال ارتوا : وما أهمية ذلك ؟!

قال الملك : أنا أعلم انهم سوف يختلفون ، المماليك والأيوبيين — اذا مات الملك الصالح .. تأكد من هذا .

قال ارتوا : انهم لا يختلفون إلا لمصلحة الوطن ، اما اذا رأوا ان خلافهم يضر الوطن فإنهم ينسون خـــلافاتهم ، ويتحدون كالبنيان المرصوص ، يشد بعضه بعضاً .

قال الملك : ان الاختلاف بعد وفاة الملك أمر طبيعي ، لا مناص من وقوعه وهذه هي أنسب فرصة للهجوم عليهم . وعليك يا ارتوا أن تأتيني بالنبأ اليقين ، وإلا تخطفتنا أيدي المصريين !.

- ٢٥ -

في حصن كيفا ؟!

هنالك ... على قمة جبل عال ... بأرض الشام ... يقف حصن كيفا ، سداً منيعاً ، يحول بين الراغبين في الهجوم علينا .

ولقد وقع اختيار الملك الصالح على ابنه الجسور الشاب تورانشاه ، ليكون أميراً على ذلك الحصن . وكان اختياره يريد به ، ان يدربه على احتمال المشاق وأن يجعله بعيداً عن زوجة أبيه شجرة الدر حيث كان نادراً ما يتفقان على أمر من الأمور ا.

ولقد فرحت شجرة الدر كثيراً يوم ابعد الأمير الى ذلك الحصن ، وأحست بالراحة لبعد ربيبها عنها .

كان الأمير تورانشاه يستعرض قواته بالحصن في الصباح ، ويلقي اليهم بالأوامر والتعليمات عندما جاءه أحد الحراس وحياه ، ثم أسر في اذنه كلاماً ، وتراجع الى الخلف منتظراً ..

قال تورانشاه : ادعهم جميعاً ... وخذوا منهم الركائب ..

وعاد الحارس اليهم وأنبأهم النبأ ... فنزلوا عن خيولهم ... وسلموها الى الغلمان ... ومشوا يتبعون الحارس الى الداخل .

كانت هذه هي بعثة شجرة الدر ، قد وصلت الى الحصن بعد أن لاقت المتاعب والأهوال في الطريق . وقد تعرضوا في سفرهم لهجمات عديدة من اللصوص والصليبيين والأعراب ... إلا انهم كانوا يفلتون منها عندما يطلقون لخيولهم العنان ، فتمرق بهم كالسهام المرسلة ، ولا يستطيع الأعداء لهم قتالاً .

وجاءوا سالمين .. ودخلوا على تورانشاه .. فاستقبلهم هاشا باشا .. يكاد يطير من فرط السرور .

قال تورانشاه : اجلسوا .. فإني أشتاق إلى ريح الأحبة .. كيف حال أبي .. كيف حال مصر .. ماذا فعلتم في هؤلاء الكلاب الصليبيين .

قال كبيرهم : خيراً والحمد لله .. أيها الأمير ..

قال تورانشاه : طبعاً .. لم تفطروا .. هيا بنا .. الفطور شهي وسوف يعجبكم ..

ومضى الأمير بضيفانه الى بهو الطعام ، وجلسوا يأكلون من الفطائر ألوانا .

قال الأمير وهو يلتهم قطعة من الفطير : لشد ما أنا في شوق الى شربة ماء من ماء النيل ؟!.

قال رئيس البعثة : مَن شرب من ماء بردى والفرات ، فكأنه شرب من ماء النيل .

قال تورانشاه : هذا صحيح فأنهار البلاد العربية كلها عذبة في فم كل عربي. ولكني لا أخفيك أن لماء النيل سحراً عجيباً من ذاقه لم يستطع منه فكاكا .

وفرغ تورانشاه وضيفانه من الفطور ، وانتقلوا الى بهو من البللور .

سجيء بالشراب فشربوا .. وبدءوا يتكلمون.

قال رئيس البعثة : جئنا نحمل الى مولانا ذلك الكتاب ..

قال تورانشاه : هاته ... طبعاً كتاب من أبي ... لعله أمر نقل من حصن كيفا الى مكان آخر .. خيراً ان شاء الله .

وفض الأمير المظروف، ونشر الكتاب وجعل يتلو : بسم الله الرحمن الرحيم من شجرة الدر زوجة الملك الصالح الى السلطان الملك المعظم تورانشاه ...

وهنا اصفر وجه الأمير الشاب ، وصاح : نبئوني ما الخبر ؟!.

فصمت الجميع ... فواصل الأمير القراءة : .. إن لله وإنا إليه راجعون . مات الملك الصالح ... عاش الملك المعظم توران‌شاه ... إني أدعوك لتأخذ مكان أبيك .. غير متلبث ولا متباطيء ، فإن الأمر جد خطير ، والعـدو داخل البلاد .

شجـرة الدر .

« صدر بقصر المنصورة السلطاني ، وبصم بخاتم السلطان »

كان الخبر مفاجأة تامة للأمير وللبعثة أيضا ... فلم يكن أحد منهم يتصور أن الملك الصالح قد مات !.

لذلك انفجروا جميعاً يبكون ... وكان كل منهم ينظر الى صاحبه ، فإذا رآه يبكي بكى هو الآخر لبكاء صاحبه . لذلك كان من الصعب ، أن نتبين من منهم البادىء بالبكاء .

إلا أن توران‌شاه صدمه الخبر ، فاختلت له حركاته ، بما جعله يقول : مات أبي ؟!. مات أبي ؟!. أواه يا أبتاه ؟!. ليتني كنت معه ! يا للحياة .. لو يعلم الإنسان ما يكون ما فارق الحبيب حبيبه !. أنا أخلف أبي ؟! وفي مثل هذه الظروف العصيبة ؟!.

قال رئيس البعثة : أيها الملك المعظم .. تالله ما نعلم هذا الأمر حتى الآن !. لقد فوجئنا ...

قال توران‌شاه : متى مات أبي أيها الرجال ؟؟.

قال رئيس البعثة : يعلم ذلك علام الغيوب ...

قال توران‌شاه : ولكن لماذا لم يختاروا أحداً غيري ... الحق أقول لكم يا رفاق ... هذا شيء لا يطاق ...

وترك تورانشاه البعثة وحدها ... ثم نهض وهو في حالة من لا يدري ، ودخل وفي يده الخطاب ، الى داخل القصر !.

- ٢٦ -

اللحظات الاولى للسلطان الملك المعظم تورانشاه ؟!

دخل تورانشاه الى حيث كانت زوجه الأميرة شمس الملوك تلاعب صغارها فلوح بالكتاب وناداها .. شمس الملوك .. شمس الملوك ..

فقامت من فورها ، وألقت بصغارها ، وقالت : لبيك سيدي لبيك ... والخير بين يديك ... ماذا تريد .

قال المعظم تورانشاه : أيتها الملكة ..

قالت : ماذا تقول ؟!.

قال : اقرئي ....

وأخذت شمس الملوك تقرأ ما بالكتاب ، فما ان انتهت من تلاوته ، حتى شهقت شهقة عنيفة ، دوت في سماء القصر .

قال لها المعظم : ماذا أصابك يا شمس الملوك ؟.

قالت : أصابني ما يصيب الإنسان عندما يتحول الى ملك من مملوك !.

قال : ولكن أبي ...

قالت : رحم الله أباك أيها السلطان ، وجعل مثواه في قصور الجنان .

قال المعظم : إن أعصابي قد انهارت من هول الموقف .

قالت شمس الملوك ، وقد أخذت المعظم بين ذراعيها وأجلسته على فخذيها : اجلس أيها السلطان ...أهكذا تستقبل الخبر يا سلطان ؟؟

قال المعظم : شمس ؟!.

قالت : لبيك توران ...

... فلما أفاق ، نهض على ساق ... وقال : مضى عهد المشاق ...

وراودته أحلامه كإنسان يطمع في مُلك أبيه ، وانشرح صدره لما آل اليه ومسر وجهه للسلطنة الهابطة عليه ، ونازعته أحزانه ، كفتى فقد أباه ، فاكتأب بعد سرور ، وأنهار بعد حبور .

ثم تلاشى الخاطران ، وانبعث فيه سر أبيه ، فصاح بأعلى صوته : الى مصر الى مصر . الى البلد الحبيب ... الى جهاد الصليبيين .

– ٢٧ –

قلـــق ؟!

وشاع في أرجاء الحصن وذاع ، خـــبر وفاة الملك الصالح . وبدأ الخدم والحشم، والجنـد والضباط يتهامسون بالخبر ، ويعلقون عليه . إلا أن شمس الملوك كانت أول الفرحين به والمستبشرين بوقوعه . وبدأت تتصرف كما لو كانت ملكة متوجة . كانت تتحرق شوقاً الى السفر الى مصر ، لتأخذ مكانها في القصور السلطانية ، وجزيرة الروضة ، وقلعة الجبل .

كانت شمس الملوك تعلم ما لمُلك الأيوبيين من عظمة وبهاء وسناء . وكانت ترى ما عليه الملكة شجرة الدر من علو وسلطان ، وما يتلألأ على صدرها وذراعيها وساقيها من جواهر نفيسة ، ولآلىء نادرة ، فكان كل ذلك يدفعها الى تمني اليوم الذي تتسلطن فيه تورانشاه ، فتصبح هي بالتبعية سلطانة على البلاد ، والمرأة هي المرأة على كل حال .

إلا أنها كانت تشك في امكان تولية زوجها مكان أبيه ، لمـا فيه من خفة

الشباب ، ولما عليه زوجة أبيه شجرة الدر من دهاء وحيلة . فما أن رأت الكتاب موقعاً عليه من شجرة الدر نفسها حتى اطمأنت على زوجها ، وارتاحت الى آمالها ، وأخذتها حسرة النصر ، ولذة الملك ، ونشوة الأنس .

بيد أنها كانت تخشى من شيء واحد . كانت تخشى أن يكون للمماليك البحرية رأي آخر غير رأي شجرة الدر ، خاصة وأنهم يطمعون في الملك بعد أن كثروا وأصبحوا القوة الضاربة في الجيش .

إلا أن ذلك الخاطر لم يكن ليقلقها بعد وصول كتاب شجرة الدر لأنها تعلم من هي شجرة الدر ، وما هو سلطانها على الأيوبيين والمماليك على السواء ، إنها تعلم أنها ذات نفوذ على الجميع ، وأن الكل يحترمونها لرجاحة رأيها ، وصدق اخلاصها في السياسة والكياسة ، فإذا كانت قد وافقت على اختيار تورانشاه ، وبعثت تستقدمه فمعنى ذلك أن غيرها من المماليك أو من سواهم ، سوف يوافق ان عاجلاً أو آجلاً .

إلا أن القلق عاد اليها مرة أخرى ، عندما تذكرت مواقف تورانشاه من شجرة الدر طيلة حياته ، وكيف كانا لا يتفقان أبدا على رأي .

واشتد قلقها ... وأيقنت أن الأمر حيلة لاستقدام زوجها لايقاع الشر به أو لاغتياله .

واستبد بها ذلك الخاطر ، حتى دفعها الى البحث عن تورانشاه . فذهبت تبحث عنه في كل مكان ، حتى عثرت عليه راجعا من عند ضيفانه .

قال تورانشاه : شمس ... لقد خلعت على البعثة ما يليق بهم ، وأعطيتهم أكياساً من الذهب والفضة ... كيف لا ... وهم الذين حملوا إليّ نبأ السلطنة ، وكانوا أول من بشرني بذلك .

فلم تلق شمس الملوك بالاً لقوله ، وقالت في ألم : لا تفرح يا توران ، حتى يصبح الأمر إجماعاً لا رجعة فيه .

قال توران : أتمزحين يا شمس ؟!.

قالت : بل أخاف عليك أن يمسك من كيد المماليك !.

قال توران : المماليك .. المماليك .. أنا زعيم بهم .. عندما أعود الى مصر سوف أمزقهم .. سوف أشردهم .

قالت : اخفض من صوتك .. حتى لا يصل اليهم كلامك .. كأنك لا تعلم أجواء القصور وما يجري في دهاليزها .

قال توران : إن كان هذا ما يقلقك فلا داعي للقلق يا شمس .

قالت : هو هذا ليس إلا .. ثم لماذا تستدعيك هي ، ولا يستدعيك المماليك ألا ترى أن في الأمر سر يا توران ؟!.

قال وقد اكتأب من قولها : حقاً لماذا تستدعيني امرأة أبي ، التي عملت على ابعادي عن أبي ، ليس من شك أنها لا تحبني ، ولا تستطيع أن تحبني ، فلماذا اضطرها أن تقف ذلك الموقف النبيل يا ترى ؟!.

قالت : لعلها اضطرت الى ذلك اضطرارا .. بسبب وفاة الملك الصالح . ولو كان ابنها خليل حياً لما استدعتك أبدا ، ولوضعت التاج على رأسه بدون استئذان ...

قال توران . دائمـــاً تذكرين هذا الأمر السيء إليّ ... وتجرجرين تلك الذكريات المرة ...

قالت : وكيف تسيء لها يا توران ، أن غيرة قلب أبيك عليـــك ، حتى أبعدك في هذا الحصن ، وكان ينبغي أن تكون بجواره ، وهو يعاني سكرات الموت ، أو كيف تسيء يا توران ما كانت تكيده لك طول عمرك . آه ... امرأة الأب ... خذها يا رب ... ولقد أخرجتنا من مصر بالرغم منا ... كم كنت أود أن تموت هي ، ولا يموت الملك الصالح .

قال توران : يا للنساء ... لا يلسين آلامهن أبدا ... تترسب أحزانهن في

أعماقهن ثم يخرجنها ، كلما وجدنا الى ذلك سبيلا ... نريد الآن أن نتناسى ما كان منها . لقد تولى القدر النار عنا . لقد مات أبي ، فمات بموته كل ما كان بيدها من سلطان أو تسلطن . عندما أعود الى الوطن، وأباشر سلطاتي الشرعية سوف لا يكون لها من السلطة إلا الحسرات .

قالت شمس الملوك : هذا كلام ... شجرة الدر هي شجرة الدر ... وسوف ترى ...

قال توران : سوف لا أمكنها من شيء يا شمس ... وهي الآن في موقف لا تحسد عليه .. لم يعد لها من شيء ولم تعد تستطيع شيئاً .

ثم نهض توران ، تتبعه شمس الملوك وذهبوا لنومهم .

- ٢٨ -

وصول بعثة المماليك !؟

وقف المعظم تورانشاه ينظر الى الآفاق من شرفة قصره بحصن كيفا .

كانت الشمس تميل إلى الغروب ... وقد أحدثت في السماء صوراً وألواناً ، لو اجتمع أهل الأرض والسماوات ، على أن يأتوا بمثلها ، ما استطاعوا ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . ذلك أن الله هو الذي أبدعها وصورها فأحسن تصويرها ..

وكان يزيد من جمال السماء ، أن تلك الصور كانت تتنوع وتتبدل في لمح البصر أو أقل .

نظر تورانشاه الى ذلك الجمال ، وقال لشمس الملوك : التي كانت تقف

بجانبه تناظره التمتع بسحر الأصيل : بديع السماوات والأرض ... انظري يا شمس إلى آثار الشمس في السماء .

قالت وقد سحرها ما يشير اليه : ألا ترى إن ذلك آية من آيات الرحمن يا توران .

قال : وله في كل شيء آية تدل على أنه الواحد .

ثم هبت عاصفة شديدة ، وصفرت الرياح ، واكفهر الجو فجـــأة ... فدخلا مسرعين ، وأغلقا الباب ، وما كاد تورانشاه يأخذ مجلسه بالداخل حتى جاءه أحد الحراس يستأذن عليه .

قال الحارس وقد حيا المعظم ، وتراجع الى الخلف : بعثة أخرى يا مولاي .

قال تورانشاه : غير تلك التي أتتنا منذ ثلاثة أيام .

قال : نعم .. وهم أكثر عدداً ، وأوفر ركائب .

قال المعظم : من أين أتت .

قال : يقولون أنهم من مصر .. يريدون الأمير ..

قال المعظم وقد أدهشته المفاجأة : خذ بهم الى بهو الاستقبال ، وأحسنوا ضيافتهم ، وسوف آتيكم بعد قليل ..

فحيا الحارس وانصرف ... وأقبل المعظم على زوجه ، فأقبلت عليه تسأله قبل أن يسألها : لقد كثرت البعثات أيها السلطان ..

قال المعظم : أنا في حيرة ... لست أدري من بعث هذه البعثة ... لعلها جاءت استعجالا ... أرسلتها شجرة الدر في أثر البعثة الأولى تستعجل قدومي الى مصر .

قالت ساخرة : من حبك لا تنام شجرة الدر الليل .

قال توران : سننظر من أين أتت ... وماذا تريد .

قالت شمس وهي تخشى أن يمتد به السهر مع أعضاء البعثة : أما لهـــذه البعثات من آخر .

قال توران : يبدو أن في الأمر سهرة طويلة .

قالت وهي تتألم : إن زوجات الملوك مسكينات . لا يجدن أزواجهن الى جوارهن ، كما تجد سائر النساء عند المنام .

قال توران : نحن الان في البداية ... فكيف إذا صارت الأمـــور الينا ، وآل الملك بتبعاته ومسئولياته الينا ...

قالت : الأمر لله ...

- ٢٩ -

تورانشاه يستقبل بعثة المماليك !؟

بعد قليل ... كانت بعثة المماليك قد فرغت من تناول عشاءها واستبدال ملابسها ، واستعدت لاستقبال الأمير .

جلس تورانشاه ببهو الاستقبال ينتظر قدومهم ، فلما مثلوا بين يديه استقبلهم صافحاً فصافحاه ، وأومأ اليهم بالجلوس ثم قال : جئتم من مصر ، من شجرة الدر .

قال طومان : لا ... بل من عند أقطاي ، كبير المماليك ..

قال تورانشاه : عجباً ... وماذا يريد أقطاي هذا ؟!

قال طومان وهو يخفي آلامه من تحقير تورانشاه لزعيمه اقطاي : بعثنـــا لحمل اليك هذه الرسالة يداً بيد ...

وألقى طومان الرسالة إلى تورانشاه ، وجلس ينتظر .

وفض تورانشاه الرسالة المختومة ، وأنشأ يقـــرأ ... « بسم الله الرحمن الرحيم ... انه من أقطاي ، وصحبه ضباط المماليك البحرية ، إلى الأمير تورانشاه ... أما بعد ... فسلام الله عليك ورحمته وبركاته ... فإن أباك قد اختاره الله الى جواره ، ورأت الملكة شجرة الدر اخفاء النبأ ، حتى تنتصر البلاد في المعركة ضد الصليبيين . ورأينا نحن معشر المماليك البحرية أن السلطنة لا تبغي في هذه الظروف العصيبة إلا لكم ، فبعثنا اليكم ، لتحضر الى مصر ، وتأخذ مكان أبيك رحمه الله ... ونحن جميعـــاً ندعو الله أن يوفقكم ويحفظكم ويرعاكم .

عن المماليك البحرية

اقطاي »

وألقى تورانشاه بالرسالة جانباً ... وفكر قليلاً ... ثم وجه الكلام الى طومان : ومتى كانت الوفاه ؟.

قال طومان في دهاء : لسنا ندري شيئاً يا سيدي ، سوى اننا كلفنا بتوصيل الرسالة الى الأمير .

قال توران : عجباً ... اذاً كيف اتفق لاقطاي علم ذلك ؟!

قال طومان : الله أعلم بهذا الأمر يا سيدي .

قال توران : أشكر لكم جميعـــاً ما تحملتموه في الطريق ... وأتمنى لكم ليلة طيبة ...

ثم حياهم توران ، وانصرف والرسالة بيده .

- ٣٠ -

هواجس ؟!

دخل توران الى مخدعه ، ليجد شمس الملوك في انتظاره قلقة عليه .

قالت وهي ترفع ملابس الزينة عن سيدها ، لماذا بطأت علينا يا توران ؟.

قال توران : بعثة أخرى ... اقرئي ... ,

وألقى اليها الرسالة ، وتنحى بعيداً يخلع ملابسه ، بينا جعلت هي تقرأ بصوت عال ..

قال توران وهو يشد عليه ملابس نومه : هذا آخر ما كنت أفكر فيه ... أن يبعث المماليك إلي بالبيعة ... ولكن ما شأن هؤلاء بالسياسة والملك .. ان أبي هو المسئول عن ذلك ، لقد أكثر منهم ، وأنزلهم بقلعة الروضة ، وجعل لهم من المزايا ، ما جعلهم أولى طول وحول ، والآن قد أصبحوا ولهم الكلمة المسموعة في اختياري .

قالت شمس وقد فرغت من القراءة : ما هذا الذي تقوله يا توران .. ان هذا الكتاب عندي أعز ما في الوجود .

قال توران : كتاب وقح ... ما كنت أتصور أن يحدث ذلك يوماً من الأيام ؟!.

قالت بل كتاب يدل على الإخلاص والوفاء لابن سيدهم ، ولولا انهم يحبونك ما سارعوا الى استقدامك ومبايعتك .

قال : الذي أعجب له ... كيف يجرؤون على ذلك .. هل نسوا انهم مماليك .. أرقاء .. لا رأي لهم في شئون الحكم والسياسة ؟!

قالت : دع عنك آراء الشباب ... أنت الآن ملك ... سلطان ... حاكم . والملك أساسه التدبير والتفكير ، وأعمال الحيلة في الأمور ... ان هؤلاء المماليك هم حقاً أرقاء كما تقول ... ولكنهم الآن هم الأحقاء بالشورى والبيعة ... كذلك جعلهم أبوك ... فليس الأمر أمر منطق ، ولكنه أمر الواقع الذي نحن فيه ...

قال : يعني أمسي وأصبح تحت رحمتهم ... ان شاؤوا أعزلوني ... كما ولوني ... أليس كذلك يا ست شمس ؟!.

قالت شمس : هذا عندي أعز كتاب أعتز به في تاريخ زوجي ... لقد كنت أخشى أن تبايعك شجرة الدر ، ولا يبايعك المماليك ... وعندئذ تصبح بيعتها ولا قيمة لها . أما وقد بايعوك ، وهم قادة الجيش ، وأصحاب الأمر فيه ، فأبشر ، ونم قرير العين ناعماً .

قال توران وهو يأخذ مضجعه : كيف أنام بعد اليوم ... هذا ما كنت أستذر ... أن أكون سلطاناً يوماً من الأيام ؟.

قالت : على العكس من ذلك ينبغي أن تفكر ... فالآن قد بايعتك البلاد كلها ممثلة في جيشها . ان عظمة الموقف أوحت إلى كل عربي أن يتحد مع أخيه ، وأن يكون الجميع يداً واحدة أمام العدو الخارجي . وهذا ما دفعهم جميعاً أن يبعثوا اليك مبايعين ، سائلين سرعة العودة إلى البلاد المصرية .

قال توران : أرجو أن انام .

قالت شمس وهي تغطي زوجها: نم أيها المعظم توران ... نم أيها السلطان.

- ٣١ -

الموكب في الطريق ؟!

ومضت أيام ... أعد فيها تورانشاه أموره ، ودبر أحواله ، فتم له ما يريد. ورحل عن الحصن هو وزوجه ، وخدمه وحشمه، وحجابه وجنده، في موكب سلطاني ، رائع بهي .

أما البعثتان ، فقد شدتا الرحال ، قبل ذلك بأيام .

وانطلق موكب السلطان ، الملك المعظم تورانشاه من حصن كيفا ، في طريقه الى مصر . وكان موكباً فخماً يليق بعظمة السلطنة الأيوبية .

فعلم العدو بسير موكبه ... ورصدوا العيون لاستطلاع أخباره ...

وتأكد لدى الأعداء أن الأمير قد تسلطن ، وإنه في طريقه الى مصر ليجلس على عرشها .

- ٣٢ -

في قيادة الأعداء ؟!

دخل الأمير ارتوا على أخيه الملك لويس ، يحمل اليه البشرى .

قال ارتوا : أيها الملك ... أبشر بالذي يسرك .

قال الملك : خيراً ... هل مات الملك الصالح ؟!

قال ارتوا : نعم ... يقيناً نعم ...

قال الملك لويس : تعال أقبلك ... ربحنا أكثر المعركة .

قال ارتوا : بل اكثر من ذلك .. ان الأمير تورانشاه في طريقه الى مصر .. ليتولى السلطنة بدلاً من أبيه .

قال لويس : سوف لا يكون ذلك بإذن الله .

قال ارتوا : لا تسرف في التفاؤل أيها القديس .

قال القديس لويس : ولم لا نتفاءل يا أرتوا .. سنشن عليهم هجوماً عاماً .. وندخل القاهرة ... ولا يكون عليهم سلطان منهم بعد اليوم . سيكون الحاكم على مصر فرنسياً ... قد تكون أنت يا ارتوا ...

وأطرق القديس لويس كأنما يوحى اليه ثم قال : منذ قيامي بهذه الحملة المباركة من فرنسا وأنا اشعر ان ارادة الله ، قد تأذنت بدخولنا مصر فاتحين . وحتى تم لنا فتح مصر ، فقد تم لنا فتح البلاد العربية كلها . لأن مصر قلب العروبة النابض ، ومصدر الإشعاع الى العالم الإسلامي كله .. لقد أراد الله ... لقد اراد الله ... ارتوا ... هل اخبارك هذه صحيحة ؟!

قال ارتوا : وهل تشك في صدق اخيك يا لويس .. ان اخباري يقينية لا شك فيها ...

قال لويس : سأصدر اوامري اعتماداً عليها بالهجوم العام على المنصورة ... ارتوا ... قدر المسئولية ؟!

قال ارتوا : ايها الملك القديس ... على بركة الله ... تقدم والله معنا .

قال لويس : أيتها السماء ... ايها الإله القدير ... رحمتك الواسعة ... ونصرك لجنودنا ...

- ٣٣ -

استعداد في المعسكرين ؟!

بينما كان الملك المعظم تورانشاه في طريقه الى مصر مقر ملكه ، كان الملك لويس التاسع يصدر أوامره الى قواده بالتأهب للمعركة الفاصلة .

وما ان استوثق لويس من صدق الأنباء التي حملت اليه عن وفاة الملك الصالح ، حتى امر بالهجوم العـــام على المنصورة ، التي اتخذها المصريون مقراً لدفاعهم عن البلاد .

وفي نفس الوقت كانت شجرة الدر تقود المعركة ، يعاونها في ذلك نائب السلطان الأمير فخر الدين ، على خير قيادة وأحكمها .

قال لويس وهو يصدر أوامره : اخرجوا اليهم في هجوم عام ... اريد ان نصل المنصورة بعد أيام ... وأن نصلها مهما كان الثمن ... اريدها فاصلة ... لا ندع لهم فرصة للعمل أو التدبير ...

وحياه قادة الفرنسيين ... وذهبوا ... كل الى جنوده ... يعدها للساعة الفاصلة ودقت الساعة ... وتأزم الموقف ... واحلولك الليل ... مما دعا شجرة الدر ان تشاور نائب السلطان فخر الدين .

قالت : انهم خرجوا الينا ... على غير ما كنا نريد . لقد كانت خطتي ان نناوشهم من غير ان نترك لهم فرصة للراحة ، او نبدأهم بهجوم ، إلا انهم علموا بالنبأ فانتهزوها فرصة للهجوم على المنصورة .

قال نائب السلطان : سنستمر على هذه الخطة ، ونعوق الهجوم ، حتى يحضر السلطان ، ويتولاها بنفسه .

قالت : هب انهم ارغموا على دخول المركة الفاصلة، فماذا يكون الموقف؟.

قال : سنجعلهم في وضع لا يستطيعون فيه الهجوم .

قالت : وكيف ذلك يا فخر الدين ..

قال : لا بد لهم من عبور البحر الصغير ليدخلوا المنصورة ، وسوف لا نمكنهم من عبوره . سندمر كل ما ينشئون عليه من معابر أو جسور .

قالت الشجرة : افعل ما بدا لك ... ولي رأي آخر .

قال : وما ذاك الرأي ؟.

قالت : ان تشرك معك امير المماليك أقطاي في كل شيء . حتى تطيب النفوس ، وتلتئم الجراح .

قال فخر الدين : انه يرى انني سبب ضياع دمياط ، وينظر إلي نظرة الوطني الى الخائن .

قالت الشجرة : ليس الأمر بذاك ... انه شديد الحب لبلاده ، وهذا ما يدفعه أن ينظر اليك تلك النظرة ، ولكنه يحبك ويقدرك، ويعلم ان الموقف فوق الأشخاص ... يجب ان نتسامى جميعاً الى مستوى تتلاشى فيه الخلافات .

قال الفخر : نعم ... ان البلاد في خطر داهم ... يجب ان ننسى أشخاصنا ، ولا نذكر إلا بلادنا .

قالت الشجرة : كونوا اخوة ... يشد بعضكم بعضا ... ولسوف ننتصر بإذن الله .

- ٣٤ -

البيعة للسلطان تورانشاه ؟!

كان أول شيء واجه به نائب السلطان الموقف ، ان يأخذ البيعة للسلطان الجديد . وشاور شجرة الدر في ذلك ، فأبدت استعدادها لأن تبايع لتورانشاه وقالت : أنا اول من يبايع .

قال فخر الدين : إذاً نبعث الى اقطاي ، نستدعيه لذلك .

فقالت الشجرة لولا اخرتم ذلك حتى يحضر توران . .

قال النائب : بل ينبغي ان نسارع الى ذلك ، حتى لا تكون فتنة .

قالت : بحيث لا يشغلك ذلك الأمر عن الميدان .

قال فخر الدين : سوف نبني بيد ، ونحارب باليد الأخرى ... ان الموقف يضطرنا الى ذلك اضطراراً .

قالت الشجرة : والله لن نذل ابداً ، ما دام فينا مثل ذلك الإخلاص .

قال الفخر : سأبعث تواً الى اقطاي .

* * *

وبعث نائب السلطان الى اقطاي ، فجـــاء يسعى على عجل ، وجعلا يتشاوران ...

قال فخر الدين : نريد ان نجمع الناس على السلطان الجديد ، حتى لا تكون هناك فتنة .

قال اقطاي : هذا ما كنت اريد ان اعرضه عليك .

قال فخر الدين : سوف نجمع الليلة كبار رجال الدولة ، وأنت عليك أن تحضر الى القصر ومعك من يمثل المماليك ... ومتى اكتمل المدعون ، أخذنا عليهم يمين البيعة للسلطان .

قال اقطاي : سأكون أول من يحضر ، ومعي المماليك .

* * *

وأصدر فخر الدين أوامره ، فاجتمع بالقصر السلطاني بالمنصورة ، من رجالات الدولة ليلاً من يمثل القضاء والجيش ، والأمن والتجار والزراع والصناع ، وسائر الطوائف .

ووقف فخر الدين يبين لهم الغرض الذي من اجله دعوا الى هذا الاجتماع فقال : ... ألا وإن الموت حق على العباد .. إلا وإن الملك الصالح أوشك ان يموت ... ألا وإن العدو يقرع أبواب المنصورة ... ألا وإن الموقف يوجب ان نبايع الأمير تورانشاه ... ألا وإن الأمر لا يحتمل التسويف .

وأطال الفخر في شرح الموقف ، كل ذلك وهو يخفي عنهم موت السلطان الراحل .

فكانت منه خطة بارعة .

... وأخذت الأصوات على تورانشاه ... فلم يكن هناك من يعارض ، وإنما الكل يتلهف الى بيعته ، لتتفرغ البلاد لجهاد الأعداء

وجعل الفخر يردد فقرات البيعة ، وهم يرددون من ورائه .. « وأقسم بالله العظيم ... أن أكون مخلصاً للسلطان الملك المعظم تورانشاه » ، مطيعاً له ما اطاع الله ورسوله ... والناس من ورائه يرددون البيعة مستبشرين .

وبعد أن فرغوا من المراسيم ، نهض اقطاي فوقف موقفاً رائعاً ، سجله له التاريخ ، حيث قال : يا فخر الدين ...

فاشرأبت الأعناق إلى مصدر الصوت ، فإذا به أقطاي زعيم المماليك ...

قال أقطاي : ونحن نبايعك ولياً للعهد ... فالبلاد تجتاز فترة عصيبة ، تستلزم أن يكون هناك من يخلف السلطان بلا اجراءات أو تخلف . نحن في حالة حرب ، لا تحتمل اضاعة الوقت في المراسيم ، فهل هناك من يعارض ..

فلم يسمع صوت يرتفع إلا أصوات الحاضرين وهم يرددون : على بركة الله يا فخر الدين ... ينصرك الله يا فخر الدين ...

قال اقطاي : ومن المعلوم بالضرورة أن ولي العهد يحـــل محل السلطان أبناء غيابه ... فالتبعة الآن على فخر الدين ، فاسمعوا له وأطيعوا .

قال الفخر : الا وقد بايعتموني بولاية العهد ، فإني أسأله تعالى النصر على الصليبيين ، الذين جاءوا الى بلادنا بغيا وعدوا بغير الحق .

* * *

وانفض القوم وقد بايعوا ... ونهض اقطاي فقبل فخر الدين وعانقه ، فكان موقفاً تأثر له الجميع ، ثم ذهب ينصرف هو وضباطه الذين جاءوا معه ، فاحتجزه فخر الدين .

وعقد القطبان فوراً مؤتمراً حربياً على مستوى عال لبحث الحالة الحاضرة .

قال اقطاي : أرى ابن نركز الدفاع على شاطىء البحر الصغير من جهة المنصورة ، فإنهم لا بد سيهجمون على المنصورة من هذا الطريق .

قال فخر الدين : عليك أنت أن تقود المركة في قطاع البحر الصغير ... وسأقود أنا المركة في قطاع المنصورة .

قال اقطاي : ومن يدافع عن القصر السلطاني ؟.

قال فخر الدين : أسد القصر .. بيبرس ... هو لهـــا ... ذلك الفارس الرائع ... هو قائد الحرس السلطاني... وهو يحمي القصر وهو خير من يحميه .

قال اقطاي : اختيار موفق ... وليس كبيبرس من قائد .

قال الفخر : تفرغ انت لمهمتك يا اقطاي ... لا ينبغي ان ينفذ منهم جندي واحد إلى المنصورة ... فإن حدث ونفذوا الى المنصورة بدأت مهمتي ... فإن حدث ونفذوا إلى القصر السلطاني بدأت مهمة بيبرس .

قال اقطاي : الله المستعان ... ثم حيا وانصرف .

أما فخر الدين فعكف على إصدار الأوامر لأخذ البيعة للسلطان الجديد .

وبعث بها إلى سائر أنحاء البلاد ليحلفوا للمعظم توران شاه .

- ٣٥ -

المصريون يستعدون ؟!

رحل اقطاي فوراً إلى قطاع البحر الصغير ، وجعل يتفقد قوات الجيش النظامي وقوات المقاومة الشعبية . ومر على جنوده فرداً فرداً ... وناقشهم في مهمتهم ، فراعه منهم شدة شوقهم الى لقاء الأعداء .

أما فخر الدين ، فنظم قطاع المنصورة تنظيما رائعاً ، وكانت خطته تبنى على القتال من بيت إلى بيت ، ومن شبر الى شبر ، بحيث لا يدع للعدو فرصة ليحتل شبراً من أرض المنصورة . وكانت قوات الجيش ترابط في كل مكان من المنصورة ... علاوة على قوات المقاومة الشعبية ، التي دربت أحسن تدريب

على حرب المصابات والمنازل . . هذا بالإضافة إلى فرق المقاومة النسائية التي كانت ترأسها السيدة فاطمة الدمياطية ، ومهمتها القتال كالرجال سواء بسواء ، وإسعاف المصابين ، وتضميد الجراح .

وأما قطاع القصر السلطاني بقيادة بيبرس ، فـلم يكن بأقل من أخويه استعداداً ولا رغبة في لقاء الأعداء . نظم القائد بيبرس قواته بحيث اذا هجموا على القصر من أي اتجاه ، كانت هناك من القوات الضاربة ما يكفي للوقوف في وجه هجوم الأعداء .

وكان بيبرس قائداً عظيماً ، وجندياً شجاعاً ، وبطلاً مقداماً يرهبه خصومه رهبة كبرى .

وكان دائماً يتحدث إلى جنوده عن ذلك اليوم ، الذي يلتقي فيه بهؤلاء الغزاة المجرمين ليلقنهم درساً يكون عبرة لمن بعدهم .

وبالجملة أتم المصريون استعداداتهم ، ووقفوا صفاً واحداً يتحرقون شوقاً إلى منازلة عدوهم ، دفاعاً عن مقدساتهم ، وحفاظاً لعروبتهم ، وإعلاء لشأن دينهم .

وكان أعجب شيء تشاهده ان البلاد كلها تتحفز للهجوم ، حكومة وشعباً ، رجالاً ونساءاً ، شيباً وشباناً . حتى الأطفال الذين لا قدرة لهم على النزال ، كانوا يتوقون إلى الانقضاض على هؤلاء الفرنسيين ومن جاء معهم من أنحاء أوروبا .

وأما قيادة البلاد الروحية ، فقد أدت رسالتها ، وعبأت الوعي القومي في البلاد ، فانتشر العلماء والوعاظ والمرشدون في المساجد ، وفي المجتمعات ، وفي الأسواق ، يحثون الناس على الجهاد ، ويبينون لهم ما يأمر به الإسلام من مجاهدة أعداء الله ، والتنكيل بهم ، حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله .

- ٣٦ -

الهجوم العام على المنصورة

وقف الملك لويس التاسع بمقر القيادة العليا ، وعليه ملابس الحرب الحمراء الملكية ، وكان من حوله الأمراء والقواد ، ورؤساء هيئة أركان حربه ... ثم رفع يديه إلى السماء ، وتمتم بدعوات وتسبيحات ، يستمطر رحمتها ، ويستنزل تأييدها .

ثم قال : الآن أزمت الآزفة ، وتأكدت الأنباء بموت الملك الصالح ، وأصبح الوقت ضيقاً إلى درجة لا تسمح بالتسويف . فإما أسرعنا بالهجوم على المنصورة ، وإما قضى علينا قضاءً مبرماً . ذلك ان تورانشاه في طريقه الى مصر الآن ، ليأخذ مكان أبيه ، وأنا أعلم انه شاب متوثب للمجد ، يرغب أن يدخل التاريخ على جثثنا . وإن صورة جده صلاح الدين ترتسم أمامه وتناديه دائماً : كن صلاح الدين ... فلا ينبغي أن نتلبث حتى يأتيهم ، ويقودهم ضدنا ، انما نبغتهم الآن ... ونفاجئهم ...

ثم رفع من صوته وهو يعلن قراره التاريخي : الآن أصدر أمري بالهجوم العام على المنصورة ... فليذهب كل إلى مقر قيادته ... وسوف يبدأ الهجوم عندما تسمعون جرس الكنيسة يدق دقاً متواصلاً ... وسوف يكون ذلك بعد قليل ... ولسوف ينبعث الصوت من الكنيسة الملكية .

وانفض المجتمعون بالملك لويس ... وذهب كل منهم ليتسلم قيادته وينظم قواته ، ويبين لها طريقها المرسوم ... في الهجوم العام .

وبعد قليل ... أصدر الملك لويس أمره ببدء الهجوم .

فارتفع صوت جرس الكنيسة الملكية يدوي في أنحـــاء معسكرات الفرنسيين ...

ودق الجرس المرة الأولى فانتبه الجنود .

ثم دق المرة الثانية فأخذ كل مكانه المعلوم .

ثم دق الثالثة فانطلقوا جميعاً يقصدون المنصورة .

أما جرس الكنيسة فظل يدوي أثناء تحركهم ليمسسهم من بركاته .

وتحرك لويس التاسع على صهوة جواده النادر ، يحف به خمسمائة من أمهر فرسان أوروبا وعتاة الحروب فيها .

وكان الأمل الذي يداعب خيالهم جميعاً أن المنصورة أوشكت أن تقع في أيديهم .

* * *

وواصلت قوات الأعداء هجومها ، ولم تلق مقاومة تذكر في مسيرها ، فلم تمض إلا أيام حتى كانوا تجاه المنصورة ، يتهيئون لاجتياز البحر الصغـــير الى المدينة ، التي اتخذها المصريون قاعدة للدفاع .

وعلى شاطىء البحر الصغير المقابل المنصورة ، احتشدت قوات لويس التاسع ، واستعدت لعبور البحر ، ثم دخول المنصورة ..

كانت نحواً من مائة عشر ألفاً ... أما باقي الحملة – الأربعين ألفـاً – فقد تركهم لويس التاسع في دمياط ، يحمون المؤخرة ، ويكونون قاعدة كبرى تتلقى الإمدادات ، ثم ترسلها عن طريق النيل إلى القوات الكبرى المهاجمة في المنصورة .

أي ان لويس قـــد شطر قواته إلى شطرين ، شطر أكبر ، نحواً من ثلثي جيشه ، مائة ألف أو يزيدون ، للهجوم على المنصورة .

وشطر أصغر ، نحواً من ثلث الجيش ، خلفه لحماية ظهره بدمياط .

خطة محكمة ، وتدبير عظيم ، من القديس لويس ..

- ٧ -

فخر الدين يعقد مؤتمرا حربيا سريا

وفي بهو من القصر السلطاني بالمنصورة كانت شجرة الدر الملكة المحسنة ، تجلس وأمامها نائب السلطان الأمير فخر الدين ، والقائد أقطاي ، والقـــائد بيبرس ، وغيرهم من قادة الجيش .

قالت شجرة الدر : أستحلفكم بالله ألا تخزوا أهليكم وبني وطنكم ... فذلك يوم له ما بعده ... لقد جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ومن تحت أرجلكم .

قال فخر الدين : اشهد الله الذي لا إله إلا هو ... لأقاتلنهم قتال الراغب في الشهادة .

فالتهب أقطاي واندفع يصيح : والله لتسمعن أنباء تثلج الصدور ، وتشرح القلوب ، لقد اخترعنا سلاحاً ، سوف يحقق النصر بإذن الله ...

قالت شجرة الدر : وما ذاك السلاح يا أقطاي ؟.

قال : رأت قواتنا ما نحن فيه من مأزق ، ففكرت وفكرت حتى هداها الله إلى سلاح سري عجيب ، لا يعلم عنه الأعداء شيئـــاً ، وسوف يكون مفاجأة تامة لهم .

قال فخر الدين (وهو يقبل أقطاي) : نبئني يا أخي ... ما هذا السلاح ؟.

قال أقطاي : النار الاغريقية ...

قال فخر الدين : اشرح أسلوب استعماله .

قال اقطاي : هو كرات نارية هائلة تطلقها المجانيق ، فتتهاوى السماء على رؤوس الأعداء ، شملاً وجمرات ، فيأخذهم الفزع ، ويتفرقوا في كل وجه ...

قالت شجرة الدر : الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله ... ثم سجدوا جميعاً سجدة شكر لله العلي العظيم .

قال فخر الدين : وهل أنتجتم منه كميات كافية ...

قال اقطاي : نعم ... لقد اكتشفه أحد الضباط ونبأني به ، فأمرته أن يعكف على إنتاجه هو وفريق من اخوانه ، وأن يجعله سراً ، حتى تحين الساعة وننزله الى الميدان .

قال فخر الدين : الله معنا ... الله معنا ...

ثم استأذنت شجرة الدر ... وقالت للمجتمعين : سأترك لكم المكان ، لتتفرغوا لوضع الخطة النهائية ، ونسقوها فيما بينكم ، حتى تكون الخطة متعاونة متناسقة ، فتؤتي أكلها بإذن ربها نصراً عزيزاً ، لمصر والمصريين .

ودلفت شجرة الدر إلى قصرها ... ووضع قادة الحرب خطة الدفاع ... واتفقوا عليها وعاهدوا الله على الإخلاص لله والوطن .

- ٣٨ -

محاولة عبور البحر الصغير

وأمر الملك لويس التاسع ، اقامة معبر يجتازون عليه الى المنصورة .

وشرع الفرنجية ينفذون الأمر ، فتقدم المشرفون والصناع ، يقيمون الجسر ، وبذلوا فيه جهداً جهيداً .

ورأى أقطاي ما يصنع الأعداء ، وأشار عليه ضباطه أن يمنعوا الفرنجة من إقامة ذلك الجسر ، فابتسم ابتسامة الواثق من ربه ، المطمئن إلى تدبيره ، وقال : دعوهم وشأنهم . . .

وأنفق الفرنجة يومين في تشييد المعبر ، وأتموا إقامته ، وفرحوا بما أوتوا . .

فما ان أتموا عملهم ، حتى أصدر أقطاي أمره ببدء المقاومة .

فحفر المصريون خندقاً مثل الهلال عند نهايته ، فاندفع اليه ماء البحر . . . وكان من أثر انضغاط الماء في ذلك المكان الضيق ،ان جرف التيار قاعدة الجسر ، وحطمه ومضى .

وما ان رأى المصريون السد يتبدد مع الماء حتى كبروا ، وارتفعت أيديهم الى السماء شكراً لله على تلك البداية الطيبة .

بينما وقف الصليبيون ينظرون في حسرة إلى مجهودهم الضائع .

- ٣٩ -

السلاح السري المصري

وطفق الصليبيون ينشئون على طول الساحل أبراجاً من الخشب الغليظ ، ليحرسوا مراكزهم ويرقبوا حركات عدوهم .

واطمأنوا إلى تلك الأبراج « وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب . . . » .

ونظر ضباط أقطاي مرة أخرى إلى الأبراج التي أنشأها الصليبيون على طول الساحل ، وأشاروا عليه أن تتقدم قوات من الفدائيين ، وتنعمهم بما

يعملون ، أو أن يتخذوا إجراءً مضاداً ، حتى لا يثبتون أقدامهم على الساحل ، ويتمكنوا بذلك من اجتياز البحر الصغير إلى المدينة .

وابتسم أقطاي مرة أخرى ، ونظر إلى ضباطه ، ثم قال : سوف يعلمون . . . سوف يعلمون .

وما ان أتم الأعداء تشييد أبراجهم ، ونظموا خطتهم على أساسها ، حتى أمر اقطاي باستعمال السلاح السري .

ولأول مرة في تاريخ العالم كله ، انطلقت المجانيق المصرية بشيء عجيب . . . لا عهد للأرض به قبل ذلك .

ومن الشاطىء العربي ، انصبت على الشاطىء الصليبي القذائف النارية ، من أفواه المجانيق ، فتحولت الأبراج الى أنقاض ورماد على رؤوس من فيها من الحرس والجند .

وتم تدمير جميع الأبراج الفرنسية ، واشتعلت الحرائق فيها ، منها ما نسف ، ومنها ما أحرق ، ومنها ما اجتمع عليه النسف والحريق .

ودهش المعسكران لما جرى . . .

أما الصليبيون فذعروا ورعبوا لتلك المفاجأة الحربية ، التي كانوا يتوقعون كل شيء ولا يتوقعونها ، ها هي الأبراج التي وضعوا فيها آمالهم ، تتحطم وتشتعل بمن فيها ومن جاورها .

وأما المعسكر العربي فدهش وعجب لما حدث ، لأنه لم يكن يعلم أنه يملك ذلك السلاح السري العجيب .

لقد أخفى أقطاي سر الاختراع عن الجميع عملاً بالقول المأثور (استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان) .

وجاء قوم من الجيش العربي الى أقطاي وقالوا : الله أكبر الله أكبر ... هذا نصر من الله .

قال أقطاي : لا تتفاءلوا ... ان المعركة طويلة ... اذهبوا إلى مراكزكم حتى يتم الله نصره .

— ٤٠ —

الرعب في قلب معسكر الأعداء

وكانت خطة أقطاي غاية في الدهاء والمكر ... فما ان أتم تدمير الأبراج كلها حتى أمر فاقلع الرماة عن الرمي بالمجانيق ، وهدأت الجبهة ... وسكنت الحرب ... يوماً كاملاً .

إلا أن الصليبيين لم يكونوا ليتركوا أنفسهم بدون أبراج وهي عماد جبهتهم ... فشرعوا على الفور — منتهزين فرصة الهدوء المؤقت — ينشئون غيرها ، وراعوا في إنشاء الأبراج الجديدة أن تكون أشد وأقوى .

وأنفقوا أياماً ينشئون أبراجهم الجديدة ، وسكنت قلوبهم بعد أن روعت ، وزاد طمأنينتهم أن خطوط المصريين لم تعد تقذفهم بتلك الكرات النارية الملتهبة ، فظنوا أن ما قذفه المصريون كان شيئاً عندهم ، ولم يعودوا يملكون غيره ..

وساد الجبهتان صمت عميق ...

وتألقت الأبراج الجديدة ، وسطعت عليها الشمس ، وهي تلتف كأبراج الكنائس المهيبة العظيمة .

وفجأة أصدر أقطاي أمره ، وانطلقت القذائف تتهـــاوى على الأبراج الجديدة ، يصوبها الرماة العرب في دقة ومهارة ، فلا تكاد تخطىء الرمية هدفها ، ولكن تنصب على الأبراج فتشملها وتحرقها ، وتدمرها تدميراً .

وتتابعت القذائف ، وتسابقت الكرات النارية على الأعداء ... وشوهدت الحرائق في معسكرات الأعداء ... يتصاعد لهيبها .

وكان من أعجب ما ترى أولئك الصليبيون يحاولون الهرب من الأبراج ، ويهرولون منها فراراً من الموت ، وهم مشتعلة أجسامهم ، محترقة وجوههم ، يتصايحون بلغتهم الفرنسية : الموت ... الموت ... الموت ... أين المفر ... وفجأة تهوي على رؤوسهم إحدى القذائف فتحولهم إلى خبر يروى ، أو قصة يتناقلها جنود العرب ، وهم يشهدون المعركة ، ويجأرون إلى الله أن ينصرهم ، ويحفظ الكنانة من شرور المجرمين .

وما ان أتم العرب تدمير الأبراج الجديدة ، حتى عادت المجانيق العربية إلى الصمت التام ... تماماً كما فعلت أول مرة ...

وعاد الهدوء إلى الجبهتين ... وانحطت الروح المعنوية في الصليبيين على أثر التجربة الفاشلة ، وبدءوا يشكون في النصر .

قال الملك لويس ، وقد رأى المعبر ينهار ، والأبراج الخشبية تدمر مرتين : لا ينبغي الجزع ، ولكن اصبروا ... وإن روح الله لن تتخلى عنا . وجعل يبث في جنوده من تدينه وتنسكه ، حتى هدأ الخواطر ، وأشاع الأمل من جديد في النفوس .

هذا في معسكر الأعداء ، أما في معسكرات المصريين ، فقـــد ارتفعت الروح المعنوية في الجيش ، وأصبح اسم أقطاي كأنه أسطورة خالدة ، يتغنى بها الشعب .

- ٤١ -

أزمة أخشاب في معسكرات الصليبيين

ولم يدع أقطاي للصليبين فرصة بعد ذلك يستريحون فيها ، ونادى في قواته : ان الهجوم هو خير وسيلة للدفاع ، أقذفوهم بالمجانيق .

وانطلقت القذائف العربية ، تعلن للملأ أن العرب هم العرب ، لا يقبلون اعتداء ، ولا يعطون الدنية من دينهم .

كان الجندي العربي يضع القذيفة في المنجنيق ، ثم يكبر في ايمان بربه ، ثم يقذف ، فتخرج القذيفة فيها ايدن صاحبها ، وقوة العربي إذا انطلق . فما ان تهوي على رؤوس الأعداء حتى يأخذهم الفزع ، ويتفرقون في كل واد ، يدوس بعضهم بعضا ، من شدة الهول .

واشتد اطلاق القذائف على الفرنسيين ، فاشتد عليهم الحال ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت . وكان أشد ما أصابهم أن قلت الأخشاب في معسكراتهم ، كلما أنشأوا أبراجاً يحتمون بها ، دمرها العرب عليهم ، فإذا بهم يضطرون إلى إنشاء غيرها ، فتدمر ... وهكذا .

واضطروا آخر الأمر أن يستلوا ألواح الخشب من السفن ليتخذوا منها وقوداً ، أو يبنوا بها أبراج الدفاع .

واشتد البرد عليهم ، فاشتدت حاجتهم الى الأخشاب .

وعلم ذلك أقطاي ، فنادى في جنوده : اضربوا ... اضربوا ...

وتحولت جبهة المعتدين إلى نار مشتعلة ... وتعالت صيحاتهم ... ورعبوا رعباً شديداً ، لم يرعبوا مثله من قبل .

- ٤٢ -

حرب العصابات مرة أخرى

وانتهز اقطاي الفرصة ، فرصة الرعب والفزع في معسكرات الأعداء ، فأطلق رجاله المدربين على حرب العصابات عليهم ، ليلا ونهــــاراً . فكانوا يختطفونهم أحياء ... أو يختطفونهم أرواحاً بالمدي والخناجر ، وبما تيسر من أدوات الذبح والإبادة .

وأصبحت حياة المعتدين ، جحيما لا يطاق ، النـار من فوقهم ، والموت يأتيهم من كل مكان .

وشاع الرعب وذاع ... وعجز الملك لويس لأول مرة ، أن يطمئن قواته ، أو يقنعها بالثبات ... ولأول مرة كذلك بدأت قواته تشك في أقواله التي كانوا يعتبرونها من قبل كلاماً مقدساً ، يوحيه ملاك الرب إلى القديس لويس .

- ٤٣ -

والمـاء يحاصرهم

وأراد الله أن يمن على الذين اعتدي عليهم مرة أخرى ، فأوقع الصليبيين في شر أعمالهم . وألزمتهم المقادير مكانهم الذي هم فيه ، يحيط بهم المـاء من كل مكان ... البحر من أمامهم ، والبحر من ورائهم .

فلا يستطيعون التقدم إلى الأمام ؛ ولا يستطيعون التزحزح الى الوراء ، ولكن عليهم أن يحمدوا ، وليس أمامهم ان أرادوا أن يتقدموا إلا أن يجتازوا البحر الصغير الى المنصورة .

وها هو اجتياز البحر الصغير أصبح مستحيلاً كذلك . . .

وأدلهم الخطب . . فما المخرج . .

— ٤٤ —

بدء المعركة

نظر لويس الى حال جنوده ، وما هم عليه من حرج الموقف ، فرأى أنه لا مناص من التقدم ، ودخول المنصورة مهما كان الثمن ، خصوصاً وإن هذا هو الحل الأوحد لإنقاذ جيشه من الورطة التي هو فيها . فلو انه انتظر أياماً أخرى فربما هاجمه المصريون وهو في مكانه هذا ، فتتحقق ابادتهم إبادة تامة .

وجاءه شقيقه أرتوا ، يعلمه أن طلائع الاستكشاف في الجيش الفرنسي ، اكتشفت مخاضة بالبحر الصغير ، يمكن للجيش أن يجتازها الى المنصورة .

قال لويس : وأين المكان يا أرتوا ؟.

قال أرتوا : ليست بالبعيدة ، ولا بالقريبة . . . على مسيرة سويعات .

قال لويس : نريد مخاضة قريبة . . . حتى لا نكون على مرمى العدو .

قال ارتوا : على العكس من ذلك . . . اذا بعدنا شيئاً ما عن هذا المكان ، سوف يستحيل على العدو أن ينال منا بقذائفه . . . أضف الى هـــذا اننا إذا

اجتازنا البحر من تلك المخاضة فسوف لا يتمكن المصريون من ردنا عن المنصورة، سوف نتدفق منها جميعاً كالسيل الجارف الى داخل المدينة ... ثم صاح ارتوا : لويس ... دعني أدخل المنصورة كتجربة ، فإن أفلحت فاتبعني بسائر جيشك، وإن مت فلا عليك ...

قال لويس : اذهب ... فافعل ... والله معك .

- ٤٥ -

ارتوا يجتاز البحر

خرج أرتوا على رأس فرقة من فرسان الجيش الصليبي، فيها خيرة شجعانهم، وسار بها حتى ابتعد عن الجيش ، محازياً للساحل ، فلما وصلوا إلى المكان الذي به المخاضة ، تقدم بجواده ، وهم من ورائه فاجتازوها ، ووضعوا أقدامهم لأول مرة بساحل المنصورة .

ورأت دوريات الاستكشاف العربية نزول الفرنسيين بالساحل ، فدوى النفير معلناً نزول الأعداء ، فتجاوبت أنحاء المنصورة بصوته ، معلنة أن العدو دخل المدينة .

وهنا انتهت مهمة أقطاي ، وبدأت قيادة فخر الدين .

وكان الأمير فخر الدين في الحمام ، فسمع صـــوت النفير يدوي ، فخرج معجلا لم يستكمل عدة حربه .

ونادى في جنده : ائتوني بجوادي ، أريد أن أمحو عن جبيني عار دمياط ..

وجاءوه بجواده العربي الشاهق السامق ، فاعتلاه في حماسة قتالة .

ونادى في جيشه : اخرجوا من ورائي ... لنلقي طلائع الجيش الغازي ... والله لن يدخلوها علينا أبداً .

وضاحت في أعماق فخر الدين قوة عقيدته ، وحرارة عروبته ، فخرج لا يلوي على شيء ، على رأس فرقة من جيشه .

وهناك عند مدخل المنصورة ... التقى الجمعان ... واقتتلت الفرقتان ... فرقة الفرسان الصليبية المعتدية ، وعلى رأسها الأمير أرتوا ... وفرقة الفرسان المصرية ، وعلى رأسها الأمير فخر الدين ...

وكان لروع ما في الموقف منظر فخر الدين ، وهو يندفع الى قلب العدو ومن ورائه جنوده ، فيقتل منهم ، ذات اليمين وذات الشمال ، ويتخرع جميع الاعداء أمام بأسه وشجـــاعته ، ويتضعضعون وهم الآلاف أمام فروسيته وانطلاقه . .

وإذا بفخر الدين وجهاً لوجه مع غريمه أرتوا ...

فعاجله فخر الدين بضربة ، كادت تكون قاضية ، لولا أن أرتوا عاجله هو الآخر بضربة ، فكان فيها القضاء .

وسقط فخر الدين عن جواده شهيداً ... ودمه يشخب فوق أرض الوطن .

وكان آخر ما قاله وهو يسلم الروح : (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا . بل أحياء عند ربهم يرزقون) .

- ٤٦ -

المعركة في شوارع المنصورة

واهتبلها أرتوا فرصة ، فاندفع بفرقته إلى شوارع المنصورة .

واشترك الشعب جنباً إلى جنب مع الجيش ، في الدفاع عن مدينتهم الخالدة.

ودارت المعركة بالسيوف والعصي والحجارة، واشترك فيها الكبار والصغار، والنساء والرجال .

واندفع فارس ملثم من بين الصفوف على صهوة جواده ، يريد أن يقاتل العدو وحده .

كان ذلك الفارس ، لا يريد أن يتكلم ، وإنما يريد أن يقتل ويقتل . . .

وروع العدو من صولته ، وجرأته النادرة . . . فقد اندفع الى فرسان الأعداء يبارزها ، وينازلها ، حتى جندل منهم ثلاثة ، ثم طوح بالرابع عن حصانه ، فتدلى عن جواده ، فمال الفارس الملثم يجهز عليه بسيفه .

فانتهز أحد الفرسان الصليبية الفرصة ، وضربه ضربة قاتلة ، فسقط الملثم شهيداً .

وما ان رأى المصريون أخاهم شهيداً ، حتى اندفعوا يحتزون رقاب العدو ، ويعملون فيه قتلا وتنكيلا .

كان ذلك الفارس الملثم الشهيد ، هو قائد فرقة المقاومة النسائية ، السيدة فاطمة الدمياطية التي رأت بعينيها الفرنسيين يقتلون زوجها الحبيب ، وأولادها الصغار ، يوم دخلوا دمياط منذ شهور .

وكانت قد أقسمت يومئذ لتنتقمن لزوجها وأولادها . . . فبرت بقسمها .

- ٤٧ -

المعركة تنتقل إلى القصر السلطاني

إلا أن ذلك كله لم يمنع أرتوا من التقدم الى القصر السلطاني ، فقد كان يقاتل قتال اليائس إذا أحيط به . فكان يبطش بطش المجانين .

واندفع أرتوا بما تبقى من فرقته ، إلى القصر السلطاني ، حتى وصل الى ساحة القصر .

ورأت شجرة الدر من وراء النوافذ ، الخطر يصل الى مخدعها ... فنادت : بيبرس ... بيبرس .

إلا أن بيبرس كان قد سبقهـــا إلى أداء رسالته المقدسة ، لا ينتظر أمراً ولا توجيهاً .

فاندفع من ورائه فرقة الحرس السلطاني ، إلى أرتوا وفرسانه .

وصال بيبرس وجال في الميدان ، يحز الرقاب ، ويجندل الفرسان ... وما زال يتقدم ، حتى نفذ إلى الشقي أرتوا قائد فرقة الغزاة .

ورفع بيبرس سيفه في عزم من يريد أن يثأر لدينه وعرضه وشرفه ووطنه ، وأهوى به في قوة لو صبت على جبل لشطرته ، فاحتز به رقبة أرتوا ...

ورعب ما تبقى من فرسان الغزاة ...

ونزل بيبرس وسيفه يقطر دماً عن جواده ، كأنه يتحدى من يجرؤ على مبارزته من الأعداء .

وارتفع بصره الى النافذة ، حيث تنظر شجرة الدر ، وقلبهـا يكاد ينخلع

من هول ما ترى ... فنادته الشجرة من سترها : الله أكبر ... الله أكبر ...
فردد الجميع ما قالت ، ثم نادته الشجرة من عليائها : اتبع الرأس الذنبا ...

فانطلق بيبرس ومن ورائه فرقة الحرس السلطاني ، يبيدون من تبقى من الفرنسيين ، حتى تضعضعوا وانسحبوا من القصر فارين ، هاربين على ظهور خيولهم مذعورين .

أخذ الفارون طريقهم عدواً ، الى المخاضة التي جاءوا منها .

وتركوا من ورائهم ألفاً وخمسمائة من القتلى فكانت عودة فلولهم المنهزمة بشير سوء لملكهم لويس .

بينما استبشر المصريون أيما استبشار .

وأطلقت شجرة الدر الحمام الزاجل إلى القاهرة ، تحمل أجنحته أخبار النصر الى الأمير حسام الدين ، نائب القاهرة .

فهلل الشعب وكبر ، وفرح واستبشر ، واشتدت رغبته في الإجهاز على العدو .

- ٤٨ -

وصول المعظم تورانشاه

وألقت المقادير مرة أخرى التبعة على شجرة الدر وحدها ... فقد استشهد القائد الغيور ، وولي العهد ، الأمير فخر الدين نائب السلطان ... ولم يعد أمامها إلا أن تتولى الأمر بنفسها ... وقد يعاود العدو الهجوم مرة أخرى ، ليثأر لقتلاه ... ولأنه لم يعد أمامه سوى الهجوم مهما كلفه الهجوم من تضحيات .

في تلك اللحظات الفاصلة الحرجة ، وصل تورانشاه إلى الصالحية بالشرقية ، ونزل بها بالقصر السلطاني الذي ابتناه أبوه الملك الصالح بها .

وما ان وصل المعظم تورانشاه الى الصالحية ، واستراح قليلاً ، حتى أمر بالمسير فوراً الى المنصورة ، حيث ان الحال لا يحتمل اضاعة الوقت .

ودخل المعظم تورانشاه إلى المنصورة ، ودلف إلى القصر السلطاني لفوره .
وكان معه زوجه شمس الملوك ، وبعض خاصته .

واستقبلته شجرة الدر أحسن استقبال ، وقالت له : أيها السلطان ، لقد جعل الله الخير على يديك ... ونصرنا نصراً عزيزاً عند قدومك ... والبلاد كلها مستبشرة بطلعتك .

قال تورانشاه : أين أبي ؟.

قالت : في قصر الروضة بالقاهرة .

قال المعظم : مات هناك ؟.

قالت : كلا ... بل مات هنا ... على سريره هذا .

قال في غضب : إذاً لماذا نقلتموه هناك ؟.

قالت : تلك قصة طويلة أيها السلطان ... سوف أقصها عليك ان شئت ..

قال تورانشاه في لهجة الأمر : أحب أن أسمعها فوراً ...

قالت شجرة الدر وقد أدركت أن أمامها حساباً عسيراً : مات الملك الصالح ليلة النصف من شعبان ، فأخفيت موته ، حرصاً على مصلحة البلاد ، وأمرت بتحنيط جثته ، وأمرت بنقلها إلى قصر المنصورة. ثم باشرت مع الأمير الشهيد فخر الدين ، قيادة المعركة ، حتى تحضر إلى البلاد .

فصاح تورانشاه غاضباً كالأسد إذا زأر : ومن آذنك أن تفعلي هذا بأبي ؟.

ما كنت أتخيّل يوماً أن يكون هذا هو ما فعلتموه بأبي ... ولكن صبراً ... ليس هذا وقت الحساب ... ان العدو داخل بيوتنا .

وانصرف السلطان غاضباً ، يكن صدره آمالاً وآلاماً .

وعلى التو ... احتل الجناح الذي كان يشغله أبوه بالقصر ...

- ٤٩ -

مؤتمر عاجل لبحث الحالة الحاضرة

ألقت شجرة الدر بمقاليد الحكم وتبعاته إلى السلطان تورانشاه غير آسفة ، فتلقاها وهو يضمر نحوها أموراً ، لم يشأ أن يبدها لها .

ودعا فوراً إلى عقد مؤتمر حربي من قادة الجيش .

وجاءوا اليه سراعاً ... قالوا : أيها الملك ... نرى أن نشن عليهم هجوماً عاماً ، قبل أن يفيقوا من هزيمة بيبرس ...

قال المعظم : وما هزيمة بيبرس ؟.

فقصوا عليه القصص ... قالوا : اندفع أرتوا بفرقته إلى ساحة القصر ، فاندفع اليه بيبرس ، يدافع عن أقدس مكان في أرض الوطن ... حيث يجلس السلطان ويحكم ... وجندله صريعاً وجندل غيره مئات .

قال تورانشاه : سوف ندخل التاريخ من أوسع أبوابه بإذن الله ... سوف نقاتلهم حتى لا ندع منهم أحداً حياً ...

ثم نهض السلطان ايذاناً بانتهاء الاجتماع وهو يقول : فليذهب كل إلى مقر قيادته ... وسوف يكون النصر بإذن الله .

الأسطول المصري في المعركة

وأمر المعظم تورانشاه بصناعة أسطول ضخم ، ثم انزاله ببحر المحلة .

وإن هي إلا أيام حتى كان الأسطول معداً كما أمر .

وأنزلت السفن المصرية في بحر المحلة ، ووقف المعظم تورانشاه يستعرض السفن وقت انزالها . قال لمن حوله : تلك خطة لها ما بعدها .

قالوا : لسنا نفهم ما ترمي اليه أيها السلطان . .

قال السلطان مخاطباً أمير الأسطول : اذهب بسفنك هذه ، إلى ما وراء خطوط الصليبيين ، واقطعوا عليهم طريق العودة إلى دمياط ، أو النزول منها إلى المنصورة ، واقطعوا عليهم طريق التموين . . . وليكن معلوماً لديك ، انه لا يجوز أن تمر سفينة فرنسية بالنيل ، لا آتية من دمياط ، ولا عائدة من المنصورة . . . واستبسلوا في مواقعكم ، وأظهروا الروح العربية على حقيقتها .

وأبدى السلطان ارتياحه الى عظمة الأسطول المصري ، وأمر به فتحرك إلى وجهته .

وحينئذ أدرك من حوله ، شيئاً عن خطته التي اعتزمها .

انه ينوي أن يشنها على الصليبيين حرب إبادة . . . وها هو قد قطع عليهم طريق العودة إلى دمياط بحراً . . . وقطع عليهم طريق التموين من دمياط . . . فالويل للفرنسيين إذا هاجمهم تورانشاه .

- ٥١ -

شجرة الدر ترحل إلى بيت المقدس

في الوقت الذي كانت الجيوش العربية تستعد لخوض المعركة الفاصلة مع الصليبيين ، كانت شجرة الدر تستعد للرحيل إلى بيت المقدس .

دفعها إلى ذلك خوفها من بطش تورانشاه بها إذا ما فرغ من المعركة .

انها كانت تعلم ان ما اتخذته من اجراءات نحو جثة أبيه الملك الصالح، لا يمكن بحال ، أن يقره المعظم تورانشاه .

وكانت تعلم تماماً من هم الأيوبيون ... وما هي عظمة ملوكهم ... فكيف توارى جثة الملك الصالح مواراة الكلاب .

وهي لا تنسى تلك الليلة السوداء التي قضتها ، وتورانشاه يناقشها الحساب ، ولا يغتفر لها إبعادها له إلى حصن كيفا ، ليخلوا لها وجه أبيه ، وتنفرد بالأمر من بعده .

وهي لا تنسى تهديده لها : أنت يا شجرة الدر ... ينبغي أن تعودي إلى وضعك الطبيعي كامرأة مصونة ... وليس معنى اتخاذ أبي إياك زوجة أنك خرجت عن زمرة الأرقاء ، بل سوف يكون ذلك .

وجلست شجرة الدر إلى وصيفاتها ، وأسلمت اليهن وجهها يحملنه التجميل المناسب لامرأة في زمن الحداد على زوجها .

وأمرت فجمعوا لها كل ما تطمع فيه من ثروة السلطان الراحل ، من جواهر ولآلىء وتحف ورحلت إلى بيت المقدس . . . فراراً مما ينتظرها من سوء الحساب .

- ٥٢ -

أميت ... أميت

ودعا المعظم تورانشاه قادة القوات الفدائية وقال لهم : هاجموهم ليلاً ونهاراً جهراً وأسراراً ، لا تتركوهم ينامون ... أرهقوهم ... حولوا حياتهم ناراً ... وليكن شعاركم : أمت ... أمت .

وحيا قادة الفدائية وانصرفوا إلى مهمتهم الشاقة ... وما هي إلا سويعات حتى كان الفدائيون المصريون ، يهاجمون الصليبيين بكل الطرق الممكنة . كانوا يقتلون منهم ، ويجرحون ، ويأسرون ، ويحرقون الخيام ، ويفعلون كل ما يحول حياتهم إلى جحيم لا يطاق .

وإلى جانب ذلك قل الزاد في معسكرات الأعداء .

وانتظر الفرنسيون الإمداد من دمياط – كما تعودوا – إلا أن الإمداد لم يأت .

ومضت أيام ... ولا شيء يبدو في الأفق يبشر بوصول الإمدادات .

حينئذ أدرك لويس التاسع ورفاقه ، أن المصريين قد قطعوا عليهم خط التموين النيلي . . وصاح لويس في قائد أسطوله : ينبغي فتح طريق التموين ، وإلا هلكنا جميعاً .

ورد قائد الأسطول الفرنسي : لقد أنزل المصريون يا سيدي أسطولاً جديداً، رابط في النيل ، وهم على استعداد لنزال كل من تحدثه نفسه ، وبالمرور شمالاً أو جنوباً ، على صفحة نهرهم الخالد المقدس .

قال القديس لويس : (وقد أسقط في يده) : كأننا قد أصبحنا الآن كبندقة في مكسرة ، لو ضغطوا عليها لحطمونا أجمعين . .

قال قائد الأسطول الفرنسي : الله وحــــده هو القادر على أن يخرجنا من هذه الورطة .

وبدا لويس كأنما قد شاخ فجأة ثم قال : هذا ما كنت أخشى . . . كنت أريد أن أدخل المنصورة قبل أن يجتمعوا على سلطانهم الجديد ، ولكن المقادير سبقتني . . . وها نحن لم نتقدم خطوة إلى الأمام . . . بل كل يوم يمر يزيدهم قوة ويزيدنا ضعفاً. لقد جاءهم تورانشاه . . . شاب يريد أن يثأر لوطنه . . . واجتمعت من حوله البلاد جيشاً وشعباً . . . ويا ويل الغزاة إذا التقوا بشعب متحد .

والآن ماذا نصنع . . . ينبغي علينا أن ندخل معهم معركة انتحارية . . . فإما قضي علينا . . . وإما قضي عليهم .

– ٥٣ –

تورانشاه يأمر بالتعبئة العامة

وأصدر المعظم أمره ، أن يوضع الشعب كله تحت السلاح ، وأن يحمل كل الناس السلاح ليدافعوا عن بلادهم . واشتق تورانشاه أمره هـــذا من القاعدة الشرعية الإسلامية القائلة ان العدو إذا نزل بأرض المسلمين وجب القتال على كل مسلم ومسلمة .

وبدت المنصورة يومئذ وما حولها من الحقول الخضراء ، كأنها يوم الحشر ، وقد اجتمع الخلائق لفصل الحساب .

كانت تموج بالجيش والشعب ، جنباً الى جنب ، كل قد حمل سلاحه ، واستعد للمعركة الفاصلة .

وإذا امحت الخلافات من البلاد ، واتحد جيشها وشعبها ، اندحر العدو ، وخرج مذموماً مخذولاً .

ولقد كانت مصر كذلك يومئذ ... وعلى رأسها قائد شاب ، يريد أن ينقض على الغاصب ، ويلقنه درساً ، ويلقيه الى البحر .

– ٥٤ –

الوباء في خطوط الأعداء

وبينما كانت البلاد تزداد قوة يوماً بعد يوم ... كان لويس يزداد ضعفاً على ضعفه ... وبدأت الفرقة تدب في صفوفهم ، مما دفع لويس أن يجمع قادة جيشه ليوحد بينهم .

قال الملك لويس : اني أرى الخلاف وقد بدأ يدب بينكم ، وهذا شيء ينذر بالخطر .

قال قائد الجيش : وكيف لا يدب الخلاف بيننا ، والحال ما ترى أيها الملك .. التموين ينقص يوماً عن يوم ... حتى أصبح الجنود يشكون الجوع علناً . وجثث القتلى تتناثر فوق سطح الماء ، وفوق أرض المعسكرات ، مما أدى إلى انتشار الوباء في صفوفنا ، وأصبح يهددنا جميعاً . لقد انتشر الوباء فأصاب الخيل ، وها هي العدوى تنتقل من الخيل الينا . فكيف الصبر على هذه الحال ..

ثم اتبعه أمير الأسطول فقال : وأدهى من ذلـــك وأمر ، ان الأسطول الفرنسي الذي كان يشق طريقه جيئة وذهاباً ، من دمياط الى المنصورة، أصبح عديم القيمة الآن ، حيث قطع المصريون علينا ذلك الطريق البحري الوحيد .

قال لويس وهو يحاول أن يكون شجاعاً : كل هذا معلوم ... والمطلوب الآن ليس شرح ما حدث ، وإنما كيف الخروج من هذا المنخنق ؟.

قال أمير الجيش : ليس هناك إلا أحد احتمالين .. إما أن نهجم على المنصورة وليكن ما يكون ... وإما أن ننسحب براً الى دمياط عن طريق فارسكور .

قال لويس : أما الهجوم على المنصورة ... فأصبح مستحيلاً بعد أن احتشد فيها الجيش والشعب ، جنباً الى جنب ، كل يريد أن يسوي بنا الأرض .

قال أمير الجيش : اذاً ليس أمامنا إلا الانسحاب براً الى دمياط ... حيث ننضم هناك الى قواتنا التي خلفناها في تلك المدينة .

قال لويس : هذا هو الرأي ... ولكن كيف التنفيذ ؟.

قال أمير الجيش : ننسحب سراً ... في أثنـــاء الليل ... بحيث لا يعلم بانسحابنا المصريون ... وأرى أن نترك الكوبري الذي أقمناه على البحر كما هو ، وأن ندع القوات المواجهة للعدو كما هي لآخر لحظة ، حـــتى يتم انسحابنا ، ثم يلحقون بنا .

قال لويس : هو ذاك ... وأنا أوافق على ذلك ...

- ٥٥ -

الويل للفرنسيين

وجاء مدير المخابرات الفرنسية الى الملك لويس يحمل اليه أنباء سيئة ، غاية السوء بالنسبة للصليبيين . قال الرجل : أيها الملك ... لقد حشدوا لنا من كل هب ودب ... آلاف من قوات الجيش ، آلاف من المتطوعة ... آلاف من العربان ... كل ذلك ومن ورائه الشعب المصري كله ، قد تكتل صفاً واحداً ، يموج موج البحر الهادر ، ويزأر زئير الأسد الغاضب . أرأيت الى الليث اذا دخل الأجنبي الى عرينه .. ذلك هو الشعب المصري الآن . يشعرون أن وجود المحتل الغاصب ، داخل بلادهم عاراً وأي عار ، ينبغي أن يمسح عن جبين البلاد . وليس ذلك وحده أيها الملك ، بل ان الملك تورانشاه قد نفخ فيهم من روحه الشابة المتوثبة الى المجد ... بل أكثر من ذلك ، لقد جاءني رجالي بأنباء وثيقة ، أنه فتح مخازن الأسلحة ، ووزع ما فيها على الشعب ، ليخرج الجميع يقاتلون العدو عن بلادهم .

واستمع الملك لويس الى حديث مدير مخابراته العسكرية ، وهو ينقبض على نفسه ، وان كان يظهر الثبات والتجلد ، فإن للطاقة البشرية حداً لا تستطيع الاحتمال بعده .

ثم قال الملك المحزون : الويل للصليبيين ... الويل للصليبيين ، ان لم تتداركنا رحمة الله .

قال مدير المخابرات : سيدي ... هذه معلومات لا ريب فيها عن حالة أعدائنا ... فانظر ماذا ترى ..

قال لويس : نادني بالقادة جميعاً .

وجاء المدير ومعه قادة الجيش الفرنسي فابتدرهم لويس : ان صاحبكم يحمل أنباء غير سارة .

قال المدير : وما شهدنا إلا بما علمنا... ان تورانشاه يجمع الأمة كلها ضدنا... انه يريد أن يسجل نصراً يدوي في الآفاق .

قال أمير الجيش : ما زلت أرى الانسحاب بالليل سراً الى دمياط ... فنفوت عليهم فرصة مهاجمتنا ، ونحن في وضع لا نحسد عليه .

قال أمير البحر : وأنا أشاطرك الرأي ، وليكن في الحسبان أن الأسطول الفرنسي أصبح غير ذي موضوع ، بعد أن قطع المصريون علينا البحر ، فلم يعد أمامنا إلا الانسحاب براً ...

قال الملك في حسرة : اما الأسطول فأصبح عديم الجدوى ... وأما الجيش فأصبح في حالة حصار ... أنا أشك في نجاح الانسحاب ونحن على هذه الحال..

قال مدير المخابرات : أرى أن ندخل معهم معركة فاصلة التو واللحظة .

فصاح به المجتمعون : أمجنون أنت يا رجل ..

قال المدير : هي محاولة فإما فككنا حصارنا وأقلتنا الى دمياط ، وإما أبادونا ...

قال أمير الجيش : هذا كلام من لا يعقل من العسكرية شيئاً ... أرجو أن تدع لنا تدبير الأمر ...

قال لويس : الرأي عندي أن نعرض عليهم الصلح .

فبهت الحاضرون ... ونظر بعضهم الى بعض ... وعجبوا لانهيار أعصاب الملك المقدام .

قال أمير البحر : وهل يقبل منا تورانشاه صلحاً ، ونحن في حالنا هذه ؟. سوف يفرض علينا التسليم بدون قيد أو شرط .

قال أمير الجيش : نعم ... وإنهم سوف يشعرون بسوء ظروفنا ...

قال لويس : ذلك رأيي الذي أراه ... ولا تنسوا انهم قد يرحبون بإنهاء حالة الحرب التي بيننا وبينهم ، ما دامت لا تكلفهم الدخول في معركة لا يعلمون ما تؤول اليه .

قال الأمير الفرنسي – شقيق الملك الصغير – وكان ملازماً للصمت طول الاجتماع : يا للعار أيها الملك ... فرنسا تستسلم لمصر .. والله لن يكون هذا أبداً ...

فتحمس زعيم فرسان الكنيسة وصاح : المجد لله في الأعالي ... أيها الناس اصبروا والله مع الصابرين ... اخرجوا اليهم على قلب رجل واحد ، وادخلوا معهم في معركة حاسمة ... والله سوف ينصركم نصراً عزيزاً ...

ونظر القديس لويس الى خطبة زعيم فرسان الكنيسة ، وتأثر بها غاية التأثر ، وارتسمت على وجهه اشراقة الأمل ، وتذكر الغاية التي من أجلها خرج من فرنسا ، وهي غزو مصر قلب العروبة النابض ، وإذلال مصر قلب الإسلام المتحرك ، فقال : أيها الأب ... كنت أتمنى أن أغزو مصر ، وأن أضحي بروحي في سبيل دخولها ، وأنت تعلم هذا ...

قال الزعيم : مم ... من أجل ذلك عجبت لرأيك الأخير ...

قال الملك : لا تعجب . . فالمقادير تأتي بما لا تهوى الأنفس ... اني لأعلم حقيقة قواتنا ، وحقيقة الظروف ، التي نحن فيها .. ولم يعد أمامنا إلا أن نتصالح ، أو ننسحب سراً ... وفي رأيي أن نعرض عليهم الصلح ونحن أقوياء ، فإن عرضوا علينا شروطاً مشرفة وقعنا معهم المعاهدة وعدنا الى بلادنا ...

وسوف نرجع اليهم بعد حين لنثأر لما أصابنا ... وإن رفضوا لم يبق إلا الانسحاب ليلاً ، دون أن يشعروا بانسحابنا .

قال زعيم الكتيبة (وقد هبطت حماسته) : يفعل الله ما يشاء ...

قال الملك : ماذا ترون في عرض الصلح ؟.

قالوا وقد ارتاحت الى رأيه قلوبهم ، وانشرحت له صدورهم : افعل أيها الملك ... انقاذاً لشرف فرنسا من العار الذي يوشك أن ينزل بها .

- ٥٦ -

لويس يعرض الصلح

ولم يضيع الملك وقتاً ... وإنما سارع فجاء بشقيقيه ، الأميرين الفونس وآنجو ، وجعل يرسم لهما الخطة التي يسيران عليها فقال : الفونس ... تذهب ومعك آنجو ، تتقدمان الى الخطوط الأمامية ... تلوحان بالأعلام البيضاء ... حتى اذا ما سمحوا لكما بالتقدم ... اطلبوا مقابلة السلطان لأمر هام ... وأصروا على مقابلة السلطان نفسه ... وكان الأميران ينظران في شفقة لأخيهم الملك لويس ، وهو يتكلم ويتألم مما يتكلم فيه ثم سلما وانصرفا ...

- ٥٧ -

تورانشاه يرفض الصلح

قال السفيران الفرنسيان ، وهما يعرضان شروطهما للتصالح ، وكان يتحدث عنهما أكبرهما سناً ، وهو الأمير الفونس : أيها السلطان ... جئنا مفوضين من أخينا الملك لويس التاسع ملك فرنسا ... للتفاوض ...

فتكلم تورانشاه في عظمة السلطان ، وثقة الإيمان : فيم تتحدثان ؟..

قال الفونس : في الصلح ... أيها السلطان ...

قال توران : وأي صلح بيننا وبينكم ، وأنتم داخل البلاد ؟.

قالوا : ننسحب من المنصورة ... ومن دمياط ، ولا يكون بيننا حرب .

قال توران : وماذا نربح من هذا وهو تحصيل حاصل ؟.

قال الفونس : نحقن الدماء ...

قال توران : لقد أتيتم إلى بلادنا غزاة ، ولن تعودوا منها أبداً ... سوف نجعلكم أحاديث ، سوف نحولكم الى أسطورة تتناقلها الأجيـــال (مصر مقبرة الغزاة) .

قال الفونس وقـــد استيأس من السلطان : ان الملك لويس على استعداد للدخول في مفاوضات عاجلة ... لأنه يرغب في العودة الى فرنسا ، لحاجة بلاده الى رأيه وتدبيره .

قال توران : نبيء مليككك أن بلادي ترفض أن تضع يدها في يد الغاصب ، وإنها قد اعتزمت قتله وقتل كل من جاء معه الى بلادنا المقدسة .

ونهض السلطان ... وتعمد اهانة السفيرين ، فلم يمدد اليهما يده مصافحاً ...

فخرجا ... يحملان الى أخيهم نبأ اعلان الحرب عليه من السلطان .

- ٥٨ -

القرار ... الفرار

وقف الملك لويس يذرع خيمته الحمراء يميناً وشمالاً ، كأنما هو نمر قد وضعوه في قفص من جديد . وكان يهدد كل من يراه ... أين الفونس .. أين آنجو .. لقد طالت غيبتهما .

وفجأة جاءه الفونس ... ومن ورائه آنجو ... فابتدرهما : خيراً ..

قال الفونس : بل شراً أيها الملك ... سفارة فاشلة ... وأمور جسام .

قال الملك وقد اصفر وجهه : وما ذاك ..

قالوا : رفض السلطان الصلح ... وقال لقد اعتزمت الأمة كلهـــا قتلك وقتل من جاء معك .

فقال لويس وهو يزداد اصفراراً : لقد استيقظ العملاق العربي ... والويل للمستعمرين اذا خـــرج اليهم العرب متحدين . كيف السبيل الى الخروج من ذلك المنخنق ؟.

قال الفونس : دعني ... فقد أهاننا السلطان اهانة بليغة ... ورفض أن يصافحنا عند الانصراف .. فكان ذلك منه ايذاناً بإعلان الحرب بيننا وبينه ..

قال لويس : أوقد فعلها ؟..

قال آنجو : نعم ... وأهان بذلك فرنسا كلها طولاً وعرضاً .

قال لويس : كذلك العرب دائمـــاً ... لا يقبلون الإهانة ... ويكيلون للمعتدين الصاع صاعات .

قال آنجو : لم نعد نملك إلا الآهات .

قال لويس : ينبغي أن نكون أبطالاً الى الأبد . أبطالاً في السراء والضراء على السواء .

قال آنجو : أمن البطولة أن تموت وأنت مكتوف اليدين ؟.

قال لويس : هكذا أراد الله ...

قال الفونس : بل أنت فعلتها يا لويس ... وهل أمرك الله أن تخرج من بلادك لتعتدي على بلاد العرب بدعوى انك تجاهد في سبيل الله ؟..

قال لويس : كنت أريدها حرباً تذلهم الى الأبد ، فجعلوها حرباً تذلنا نحن الى الأبد ... يا لفرنسا ... يا لفرنسا .

– ٥٩ –

قرار بالانسحاب

كان الليل في بدايته ، يوشك أن يدخل الى الآفاق ، عندما استدعى الملك لويس أمراء جيشه وأسطوله ، وأخذ يردد على مسامعهم مواعظه التي تعود أن يكررها قبل أن يتكلم دائماً . ثم قال : ان الأيام دول ، يوم لك ويوم عليك ، وإنه لا ينبغي اليأس من رحمة الله ... وإنه قرر قراراً نهائياً الانسحاب هذه الليلة فوراً الى دمياط ..

قال أمير الأسطول : أحب أن ألفت نظر مولاي الى حالة أسطولنا ...

قال الملك : أعلم ذلك .. لا حاجة بنا الى أسطولك ... سننسحب براً عن طريق فارسكور ، ولا حاجة بنا الى أسطولك ... هل سمعت ؟.

قال أمير الأسطول : والكوبري ... هل نسيت الكوبري من خشب الصنوبر الذي أقمناه على النيل ، لنعبر منه الى المنصورة .. ينبغي تدميره قبل الانسحاب ، وإلا انقضوا علينا يا مولاي ...

قال الملك ساخراً في مرارة : يا بني ... لو انهم أحسوا بنا ندمر ذلك الكوبري ، لانكشفت لهم الخطة ، وكان ما نحذر ، من هجومهم علينا .

قال أمير الجيش : أرى أن ندع كل شيء على ما هو عليه ... ويكون الانسحاب في سرية تامة .

قال الملك لويس : هذا هو الرأي ... والآن استمع ... ستكون الأوامر صريحة غاية الصراحة ... تذاع في آخر لحظة ... وإليك الأمر الملكي بالانسحاب : اترك كل شيء ... وانسحب بنفسك وسلاحك فقط ، لا تحمل معك شيئاً يعوقك عن الإسراع في المسير ، ان كان لك دابة ، فاركبها وانطلق بها ... خذ طريقك الى دمياط براً ... عن طريق فارسكور ... اتبع قائدك في سيرك .

ونهض لويس فنهض القادة ثم قال لهم : بعد قليل ... عندما ترون النار تشتعل أمام خيمتي ... فاعلموا ان هذا علامة بدء الانسحاب .

قال أمير الجيش : ينبغي أن نعد لمولانا جواداً سريعاً يحمله الى دمياط قبل أن يمسه أذى من المسلمين .

قال لويس : أنا آخر من يسير الى دمياط ... سوف لا أتحرك حتى أطمئن بنفسي أن آخر جندي فرنسي قد انسحب من هنا ... ان لويس التاسع ليس فراراً من الحروب ، وإنما هي الظروف السيئة ليس إلا ...

وهنا نهض قائد فرقة فرسان الكنيسة فقال : ونحن معك أيها الملك ... آخر من ينسحب ... وأول من يقاتل عنك . تلك أخلاقنا ، وتلك صفات ينبغي أن تكون منا .

قال الملك : اذهبوا ... ومروا القوات بما أمرتكم به ... وانتظروا جميعاً علامة الإنسحاب .

- ٦٠ -

تورانشاه يودع شمس الملوك

بينما كان الأعداء يعدون العدة للإنسحاب ، كان السلطان تورانشاه يمر بقصره بالمنصورة من الوداع . كان المعظم يعلم أن المعركة ليست هينة ، وأن الفرنسيين لن ينسحبوا منها إلا إذا دخلوا معركة فاصلة . وأنه سوف يلتقي وجهاً لوجه مع الملك لويس ، يتبارزان كما هي عادة الفرسان في العصور الوسطى وأنه قد يجندل الملك لويس ، أو يجندله الملك لويس .

لذلك كله ترك خيمته الملكية في خيمات الجيش المصري ، وجاء مسجلاً إلى قصره ليودع زوجه الوداع الأخير .

واستقبلته شمس الملوك وهي خائفة مشفقة ، وقالت : أيها المعظم .. لقد انقضى يومان لم أرك فيهما كأنهما دهران ..

قال السلطان : شمس ... أيتها الزوجة الحبيبـــة ... قد لا نتلاقى بعد يومنا هذا ...

ثم قبلها قبلة أودع فيها حبه لزوجته وشريكة حياته ، التي سوف يفارقها فراقاً لا عودة بعده ..

قالت وقد تلألأت دموعها الساخنة في عينيها : لا تقل هذا يا توران ... سوف تقتل الملك لويس ، ثم تعود وعلى رأسك اكليل النصر .

قال توران : يا شمس ... إن الحرب لا قانون لها ، وأنا لا ندري أيقتلني هو أم أكون له من القاتلين .

قالت شمس وقد أخذت تبكي بكاءً حاراً ، وتلتصق بزوجها كأنها تخشى أن يفلت منها إلى الأبد : سوف تعود يا توران .. سوف تعود .

وانفجرت الشمس تهدر بالبكاء ، بينما وقف توران كالعملاق الشاهق ، ينظر إليها وهو لا يدري ماذا يقول ...

قالت : سوف تعود .. لن يأخذك الموت مني ..

وجاء صبيتهما يهرعون اليهما ، فجعل السلطان يقبلهم طفلا طفـــلا ، وهم يتعلقون بذراعه وكتفه ، فتأثر توران بما يرى ، وانفجر يبكي كالطفل هو الآخر .. فبكى أطفالها لبكائها ..

وكان منظراً تذوب له شم الجبال ..

ومكثوا ساعة في بكاء ونحيب ، ثم قال السلطان : ينبغي أن أذهب .. إن الوقت أثمن من أن نضيعه في العواطف .

ووقف السلطان في حجرة نومه ، وكانت الشموع بالقرب منه ، تضيء ضوءها الباهت ، فبدا فارساً من الطراز العربي الأصيل .. في قسماته عزم .. وفي نظراته حزم .. يتدلى في جانبه الأيسر سيفه الذي آل اليه عن جده الأكبر صلاح الدين الأيوبي .

وكان ظل السلطان تورانشاه يسقط على الفراش ، تهزهزه الرياح فيتأرجح يمينا وشمالا ..

وفجأة استل سيفه ، وشهره ، ولوح به ثم قال : إن هذا السيف سوف

غمده في صدر الملك لويس التاسع ... كم خاض صلاح الدين من المعارك بهذا السيف ...

وداعا يا شمس .. ودعا يا ناصر .. وداعا يا ثريا ..

وجعل السلطان يردد أسماء أولاده اسماً اسماً .. وهو ينسحب إلى الخارج ، بينما تصيح به شمس الملوك : توران .. توران ..

والأطفال يتعلقون بذيله وينادونه : أبتاه .. أبتاه ..

– ٦١ –

النـــار تشتعل

في الوقت المحدد تماما .. وكان ذلك في أول الليل .. أمر الملك لويس .. فأشعلت النيران أمام خيمته .

بينما انتشر قادة جيشه ، ينتظرون تلك الإشارة .

فما إن رأوها تشتعل ، حتى أمروا قواتهم بالتحرك ..

أما الملك فقد أمر بإطفاء النار سريعاً .. حتى لا تكشف مواقعه للعدو ..

وفي أول الليل من ليلة الأربعاء ، مستهل السنة المباركة ، سنة اثنان وأربعين وستمائة من الهجـــرة ، تحركت قوات الملك لويس منسحبة مذمومة مخذولة ...

كان كل همها أن تفلت من جيوش المصريين ، وأن لا تدخل مع العرب في معركة .. وكان هذا هو مبلغ شجاعة الجيش الفرنسي الباسل ..

وتحرك الجيش الصليبي متجها إلى فارسكور ..

ووقف الملك لويس على صهوة جواده ، ومن حوله رؤساء جيشه ، يرقب ر كة الإنسحاب .

- ٦٢ -

المخابرات المصرية تكتشف الانسحاب

ولم يمض إلا قليل .. حتى كانت الأخبار ، عند السلطان ، يحملها اليه ، مدير المخابرات المصرية في خيمته السلطانية .

قال السلطان : تكلم ..

قال مدير المخابرات : تأكدت الأنباء لدينا أن جيش الأعداء يتحرك ، تجاه فارسكور ، منسحباً .

قال السلطان : وكيف ينسحبون ولم نسمع لهم صوتاً ولا دوياً ..

قال المدير : لقد تركوا خيامهم على حالها ، وخلفوا أثقالها .. وانطلقوا بأنفسهم راكبين أو راجلين ..

قال السلطان وقد أشرق وجهه بنور الأمل : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ، ان ربنا لغفور شكور ..

ونظر المعظم إلى قادة جيشه ونادى فيهم : أقطاي ... بيبرس ... رشيد الدين .. سيف الدين .. إليهم .. إليهم .

قال الأمير سيف الدين القمري : أنهم سهوا عن الجسر الذي عملوه من الصنوبر على النيل ..

قال السلطان : لم يسهوا .. وإنما لم يستطيعوا له فكاكاً .. الآن .. تحركوا جميعاً بقواتكم .. واعبروا النيل من فوق الجسر الذي صنعوه .. وانقضوا عليهم وهم ينسحبون .. واقتلوهم حيث ثقفتموهم ..

وانصرف قادة الجيش المصري ليبدأوا الهجوم ..

- ٦٢ -

المخابرات المصرية تكتشف الانسحاب

ولم يمض إلا قليل .. حتى كانت الأخبار ، عند السلطان ، يحملها اليه ، مدير المخابرات المصرية في خيمته السلطانية .

قال السلطان : تكلم ..

قال مدير المخابرات : تأكدت الأنباء لدينا أن جيش الأعداء يتحرك ، تجاه فارسكور ، منسحباً .

قال السلطان : وكيف ينسحبون ولم نسمع لهم صوتاً ولا دوياً ..

قال المدير : لقد تركوا خيامهم على حالها ، وخلفوا أثقالها .. وانطلقوا بأنفسهم راكبين أو راجلين ..

قال السلطان وقد أشرق وجهه بنور الأمل : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ، ان ربنا لغفور شكور ..

ونظر المعظم إلى قادة جيشـــه ونادى فيهم : أقطاي ... بيبرس ... رشيد الدين .. سيف الدين .. إليهم .. إليهم .

قال الأمير سيف الدين القمري : أنهم سهوا عن الجسر الذي عملوه من الصنوبر على النيل ..

قال السلطان : لم يسهوا .. وإنما لم يستطيعوا له فكاكا .. الآن .. تحركوا جميعاً بقواتكم .. واعبروا النيل من فوق الجسر الذي صنعوه .. وانقضوا عليهم وهم ينسحبون .. واقتلوهم حيث ثقفتموهم ..

وانصرف قادة الجيش المصري ليبدأوا الهجوم ..

- ٦٤ -

تقهقر القوات الفرنسية

ولما رأى الفرنسيون أن المعركة تدور عليهم ، التجأوا الى قرية تسمى (منية أبي عبد الله) وتحصنوا بها . وجعل الملك لويس يشرف بنفسه على تحصينها ، والدفاع عنها .

واجتمع الى الفرنسيس خمسمائة فارس من أبطال الفرنج ، يزودون عنه ، ويفتدونه بأرواحهم .

ورأى المصريون ذلك فتبعوهم ، وداروا حولها ، وحاصروها حصاراً تاما .

فلما استيأس لويس من النصر ، وأدرك ألا أمل يرجى من المقاومة ، قعد في حوش منية أبي عبد الله ..

وطلب لويس الطواشي رشيد الدين ، والأمير سيف الدين القمري ..

فحضرا إليه .. فطلب منهما الأمان على نفسه ومن معه ..

فتجلت روح الكرم العربية .. وروح السماحة المصرية .. وأمناه ..

- ٦٥ -

صحـــوة الموت

إلا أن قائد فرقة فرسان الكنيسة ، رفض هذا الأمان ، ولم يرض عنه ، واعتبره اتفاقاً مهينا .

فانبعث يقود الفرنج .. وحملوا على حمية ..

وأحدق المسلمون بهم مرة أخرى ..

وبقوا يحملون عليهم ، حملة بعد حملة ... حتى أبيدت الفرنج ... ولم يبق منهم سوى فارسين .. فرموا نفوسهم بخيولهم الى النيل .. فغرقوا .

وكانت هذه هي المحاولة الأخيرة من القوات الفرنسية لفك حصارها ..

وكانت معركة يائسة ... بذل فيهـــا الفرنسيون أقصى ما تبقى لديهم من فروسية وفدائية ، وما كان ذلك منهم إلا حلاوة روح أو صحوة الموت .

- ٦٦ -

لويس يشهد الهزيمة بعينيه

وما ان ألقى الفارسان نفوسهما الى النيل ... حتى وقف الملك لويس ينظر نظر المغشى عليه من الموت ... وأدرك الجميع أن خاتمته قد اقتربت ... فنظر الى السماء ، وتمتم بدعوات ، يستنجد بها رحمتها ، وقال لمن حوله : ليس هناك أدنى أمل .. سوف نساق سوق البهائم الى السلطان تورانشاه .. وها نحن نموت بأيدي المصريين ولا يوجد حتى من يخبر من بدمياط بحالنا .

فقال رجل ممن حوله : وماذا يستطيع أن يفعل الذين بدمياط .. نحن في حصار تام .. فلا يستطيع أحد الوصول الينا من أي مكان إلا بأذن المصريين .. فدع عنك أحلامك أيها الملك ...

وفي نفس الوقت الذي كانت المعركة البرية تدخل نهايتها فيه ، كان الأسطول المصري يظفر بأسطولهم ، ويغنم جميع مراكبهم بمن فيها ...

- ٦٧ -

(زفة) الملك لويس التاسع

أصبح الصباح من يوم الأربعاء أول المحرم، سنة ثمان وأربعين وستمائة من الهجرة، وقد تغير وجه التاريخ .

أما حملة الملك لويس التاسع فقد تبددت .

وأما الملك لويس نفسه، فأنزل في حـراقة[1] ، وأحدقت به مراكب المسلمين، تضرب فيها الكؤوسات[2] والطبول .

وسارت زفة الملك لويس التاسع على سطح النيل ... الملك في مركبه ومعه شقيقاه، ونبلاء فرنسا الذين وقعوا في الأسر ... وكانوا نحواً من سبعين .

ومراكب الأسطول المصري تحيط به من كل مكان ...

وسار الموكب وأي موكب ..

موكب الخزي والعار لفرنسا وملكها المعتدي، الذي جاء يغزو بلاد النيل، ظاناً أنه يستطيع دخول البلاد،فأوقعته المقادير في هذا المصير المخزي المضحك.

وكانت الروح المرحة المصرية تبدو في أبهى معانيها في زفاف الملك لويس فوق سطح النيل .

كانوا يضربون بالطبـول، ويضربون بالكؤوسات، ويهتفون من أعماقهم مكبرين لله تكبيراً، على ذلك النصر المبين .

---

(١) نوع من المراكب الشراعية التي كانت تستعمل في تلك الأيام .
(٢) صنوج من نحاس شبه الترس الصغير يدق بأحدهما على الآخر بإيقاع مخصوص .

وفي البر الشرقي للنيل الجيش المصري سائر منصور مؤيد .

وفي البر الغربي للنيل ، العربان والعـــامة في لهو وتهان وسرور ، بهذا الفتح المظيم .

والأسرى تقاد في الحبال .

فكان يوماً من الأيام العظيمة المشهودة .

- ٦٨ -

المعظم تورانشاه يستعرض الجيش

ارتفعت شمس الضحى صحوة مشرقة في السماء .

وجلس الملك المعظم ، السلطان تورانشاه ، ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب ، أمام خيمته السلطانية ، بالقيادة العليا للقوات المصرية المسلحة ، وسط مخيمات الجيش .

وجلس من حوله كبار قادة الجيش ، وكبار رجال الدولة .

وكانوا جميعاً تتهلل وجوههم بشراً ، بمـــا أفاء الله عليهم من نصره وفتحه المبين .

ثم نهض السلطان ، فنهض الكبراء ، ثم ركب جواده السلطاني فركبوا . . .

وأخذوا أماكنهم من ساحة العرض العسكري بالمنصورة . . .

وبدأ الاستعراض . . . فمرت أمام السلطان ، فرق الجيش العربي المظفرة ، يقودها فرسان العرب وشجعانهم . وكان كل ضابط أو جندي عربي ، يحمل

سلاحه الذي خاض به معركة المنصورة ، فكان من تلك الأسلحة ما هو مخضباً بدماء الفرنسيين ، ومنها ما هو يلتمع من كثرة ما احتز به صاحبه رقاب الصليبيين .

وكان من أروع المشاهد في ذلك الاستعراض ، فرقة السلاح السري ، حيث كانت تمضي في ساحة العرض مزهوة بما فعلت ، فتثير حماس السلطان والشعب ، فترتفع الأصوات بالتكبير والتهليل .

وتبعتها فرق المطوعين ... وفرق العربان ... وما ان فرغوا من المرور أمام السلطان ... حتى ترجل عن فرسه ، فترجل من حوله ... ثم عادوا فأخذوا أماكنهم كما كانوا أمام الخيمة السلطانية .

وسيق الأسرى الى مجلس السلطان ... فمروا أمامه خزايا ندامى ، ناكسي رؤوسهم ، وقلوبهم هواء ...

وظنوا أنهم يساقون لتضرب رؤوسهم ، فكانوا يقتلعون أرجلهم ، كأنما قد سمرت في الأرض ...

ورأى السلطان والذين معه الغزاة المعتدين ، يقادون في الحبال ... فتلا قوله تعالى (وما النصر إلا من عند الله ...) .

وكان الفارس العظيم من الفرنسيين ، يأتيه ويمر أمامه ، وسائق يسوقه وراءه ، كأذل ما يكون .

وأحصى عدد الأسرى فكانوا سبعين ألف آدمي ...

والذي غرق وقتل ، ثلاثين ألف آدمي ...

وما ان فرغ السلطان من استعراض الأسرى ، حتى عاد واعتلى صهوة جواده ، فركب معه قواده ، وساروا جميعاً ، يفتشون ساحة المعركة نفسها ،

حيث كان النصر ... فرأى السلطان القتلى من الأعداء ، وقد ستروا وجـــه الأرض من كثرتهم .

ثم سأل كم قتل من المسلمين في تلك المعركة ..

فقالوا : مائة نفس أو أقل .

فقال السلطان : الحمد لله الذي أمكن منهم ...

وأصدر السلطان أمره فقال : كم عدد الأسرى على وجه التحديد ..

قال أمير الجيش : سبعون ألفاً يا مولاي .

قال السلطان : استبقوا منهم أصحاب الصنائع نلتفع بهم ... واضربوا رقاب جميع من تبقى ...

ثم رجع السلطان من رحلته المباركة ، ومن ورائه قواده ... في موكب رائع ، حتى دخلوا مدينة المنصورة ، في طريقهم إلى القصر السلطاني .

فاستقبلتهم الجماهير في حماس شديد ... يهتفون ويكبرون .

وبدت المنصورة كأنما قد اجتمعت فيها الدنيا بأسرها ... ضاحكة فرحة مسرورة ، تموج بأهلها موجاً ...

وعلقت الرايات ... ووزعت القربات ... وأعلن النصر في أنحاء البلاد .

- ٦٩ -

عودة المنتصر

عاد السلطان الى قصره ، مع آذان الظهر ، فتوجه الى مسجد القصر ، فصلى اماماً بالناس ، اثم دلف الى الجناح السلطاني ...

وما ان لاح بملابس الميدان أمام زوجه ، حتى كانت تعدو اليه في شوق جنوني ، وهو يعدو اليها في عظمة السلطان المنتصر .

والتقى توران وشمس الملوك مرة أخرى ، وطبعت على فمه قبـــلة النصر ، وكانت طويلة حارة ، فيها نشوة الظافر ، وشوق العائد .

وتعلق الأطفال بثياب أبيهم مرة أخرى ، وحملهم طفلاً طفلاً ، وداعبهم ، وقبلهم قبلة الأب العائد الى أولاده من الميدان .

قالت شمس : ألم أقل لك يا توران سوف تعود ... وتقتل الملك لويس بسيف صلاح الدين ..

فتأثر توران من قولها ، ونظر الى السماء وقال : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ... يا رب لــــك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ... واغرورقت عيناه بالدمع من شدة الفرح ، وشدة الإحساس بنعمة الله عليه ...

قالت : كان قلبي يحدثني دائماً ، انك سوف تعود ...

قال : آه لو رأيت يا شمس ... جثث قتلاهم وقد سترت وجه الأرض ... آه لو رأيت مواكب أسراهم وقـــد ربطوا بالحبال وهم يسيرون أمامي صفوفاً صفوفاً .

قالت : وملكهم لويس التاسع .. ، هل كان يسير أمامهم ؟.

قال توران : كلا ... فإن الشماتة ليست من أخلاق العرب ... أمرت به والنبلاء الذين معه ، وعددهم سبعون أميراً ونبيلا فرنسيا ، فاحتجزوا فور نزولهم من المراكب التي كانوا يزفون فيها ... حتى آمر باستدعائهم .

قالت : والله لو وقعت أنت في أيديهم يا توران لفعلوا بك الأفاعيل .

قال توران : هم كذلك يفعلون ... ولكن العرب يتادبون بقول الله تعالى (ادفع بالتي هي أحسن السيئة ...) .

قالت شمس : من أجل ذلك نصركم الله يا توران ... فإن النصر في الحروب لمن كان هو الى الأخلاق أقرب .

قال توران : هل نسيت ماذا فعل جدي المظيم صلاح الدين الأيوبي — عندما وقع ملك الصليبيين أسيراً في يده ، في معركة حطين .. لقد أبى أن يقتله وقال قولته المشهورة (ان الملوك لا تقتل الملوك) .

قالت : هيا الى الطعام أيها السلطان ...

ونهضوا جميعاً الى المائدة ...

— ٧٠ —

لويس يُعرض على السلطان تورانشاه

كانت الشمس توشك أن تغيب عن يوم الأربعاء ، ذلك اليوم الخالد في تاريخ العرب .

وكان المعظم تورانشاه ، يأخذ مجلسه من قصره بالمنصورة .

وكان رجال القصر والجيش والقضاء ، ورجال الأمر والنهي ، يجلسون من حوله . .

وسيق الملك لويس التاسع ... وسيق معه سبعون أسيراً ... منهم أخواه الفونس وآنجو ، أما باقي السبعين فقد كانوا من كونتات فرنسا وعظمائها الذين احتملهم لويس معه طمعاً في مغانم الشرق .

وعرضوا على السلطان صفاً ... قال : لقد جئتم من بلادكم تبغونها عوجا ... فاقتص الله منكم ... ولا يظلم ربك أحدا ...

ونظر الملك لويس الى من حوله ، كأنه يريد منهم أن يتكلموا ، وأبى هو ان يتكلم .

لقد أخذه كبر الملوك إذا وقعوا في الاسر .

قال المعظم : سواء عليك اتكلمت أم لم تتكلم ، فقد تكلمت الأيام ، وكان قولها فصلا .

فأطرق لويس التاسع ، كأنما يريد أن يذوب ، ولا يقف ذلك الموقف ...

قال توران : لو شئنا لقتلناك ومن معك ...

فاصفر وجه الملك الأسير ، واصفرت وجوه الذين معه ...

فاسترسل توران : ولكننا سوف لا نفعلها ... وإنا عليها لقادرون .

وهنا نطق ملك فرنسا فقال : القتل عندي أهون مما نحن فيه .

قال المعظم : كلا ... فإن الملوك لا تقتل الملوك ... كذلك قال جدي المعظم .

وأشار السلطان الى قاضي القضاة ، كأنه يستفتيه ... فقال القاضي : السلطان بالخيار ، بين احدى ثلاث ، اما القتل ... وإما الفدية ، وإما اطلاق

السراح . قال تعالى (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء ...) .

قال السلطان : الرأي عندي ألا نسارع الى قتلهم ... وإنما نحبسهم حتى نرى رأينا فيهم .

قال قاضي القضاة : لك هذا ... ولك أن تقتلهم ... ولك أن تطلق سراحهم ... كل ذلك أحله لك الله .

قال المعظم : تخلى فوراً دار الحكومة التي ينزل فيها القاضي فخر الدين ابراهيم بن لقمان ...

فنهض ابن لقمان وقال : أمر مولانا السلطان ...

فقال المعظم : أنا أعلم أنك تنزل فيها يا ابن لقمان ، كلما جئت الى المنصورة لعمل يتعلق بوظيفتك ... أعلم ذلك يا كاتب الإنشاء ... ولكننا الآن في حاجة اليها لينزل فيها ضيوفنا ...

وهنا ارتدت الحياة إلى لويس التاسع ورفاقه ، الذين كانوا يقفون في ذلة أمام السلطان ، فبدت وجوههم كأنما قد استنارت فجأة بنور الحياة .

ثم قال السلطان في حزم : اذهبوا بالملك لويس ملك فرنسا ، والذين معه ، واحبسوهم بدار ابن لقمان ، وأكرموهم غاية الإكرام ... ولا تمسوهم بسوء .

- ٧١ -

موكب الذلة

كانت المنصورة تلك المدينة الخالدة، التي شهدت المعركة الفاصلة بين المصريين والفرنسيين ، تموج بالقادمين اليها موجاً . فما ان علم الناس بالنصر ، حتى تدفقوا عليها من كل حدب وصوب، يريدون أن يشتركوا بأنفسهم في تحية الجيش الظافر وتحية السلطان المنتصر .

وكانت أشد البقاع زحاماً ، هي تلك المؤدية الى القصر الملكي بالمنصورة ، حيث يقع في وسط المدينة ، وتتدرج من حوله المصالح الحكومية التي انشئت مؤقتاً ، حتى تنتهي المعركة ، ويعود الحكم والسلطان الى القاهرة كما كان .

وكان بيت القاضي فخر الدين بن ابراهيم بن لقمان – كاتب الإنشاء – في ديوان السلطان ، ليس بعيداً عن القصر السلطاني .

وخرج الجنود يسوقون الملك لويس التاسع أمامهم سوق البهائم ، ومن ورائه عشرات من النبلاء الأسارى ، وقد وضع الحديد في أقدامهم ، كما كانت هي العادة في القرون الوسطى ، في معاملة الأسارى .

فما ان رأى الشعب ، الملك الأسير يسير ذليلا هو وعظماء فرنسا ... حتى اشتد تزاحمهم من حولهم ، يريدون أن يروا بأعينهم ملك فرنسا وأصحابه ، وفي أرجلهم أساور من حديد .

وتعالت هتافات الشعب : الله أكبر الله أكبر ... عش السلطـــان المعظم تورانشاه .

وامتلأت أسطح المنازل والشرفات ، ووقفت النساء العربيات المحجبات من خلف الستور يشهدن موكب الذلة ، وجزاء الغادر المعتدي .

وكان الملك لويس يسير وفي رجليه الأغلال ، ناكس الرأس حزيناً ... إلا أنه كان ثابت الجنان ... يستقبل المصيبة في صبر وجلدعظيمين .

وما زالوا كذلك حتى وصـــلوا الى دار ابن لقمان فاستقبلهم الطواشي جمال الدين المعظمي... واستلمهم ... وأدخلهم... وأغلق عليهم أبواب الدار .

- ٧٢ -

السلطان تورانشاه يبشر دمشق بالنصر

وبينما كان لويس وصحبه يساقون الى دار ابن لقمان ، كان المعظم تورانشاه مجتمعاً برجال الدولة ، يبحث النتائج المترتبة على آثار المعركة ، ويصدر أوامره في شئون البلاد العامة .

قال السلطان وهو يشير الى كاتب الإنشاء : يا فخر الدين بن لقمان ..

قال ابن لقمان : مولاي السلطان ...

قال السلطان : ابعث الى جمال الدين بن يغمور نائبنا بالشام ، بشره بالنصر ، ليفرح أهل الشام كما فرح أهل مصر ..

فقال ابن لقمان : أقص عليه ما كان يا مولاي ؟.

قال السلطان : نعم ... ما كان ، وما انتهوا اليه ... وابعث الكتاب عن لساني ... وائتني به فوراً لأوقعه ...

فانصرف ابن لقمان لشأنه ...

- ٧٣ -

وصول كتاب السلطان إلى دمشق

كان الأمير جمال الدين بن يغمور يجلس في قصره بدمشق ، يتنسم أخبار القاهرة والمنصورة ... وفجأة جاءه البشير ، يحمل اليه كتاباً من السلطان .

ففتح ابن يغمور الكتاب ونظر فيه ، وتأمل توقيعه ، ورآه مذيلاً بتوقيع السلطان الملك المعظم تورانشاه ، فسر سروراً بالغاً ، وجعل يقرأ ما فيه ، والذين من حوله يستمعون : (... من السلطان الملك المعظم تورانشاه ... الى نائبنا بالشام جمال الدين ابن يغمور ...

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ... أما بعد : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن . وما النصر إلا من عند الله . ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحـــيم . وأما بنعمة ربك فحدث . وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها .

بشر المجلس السامي الجمالي ، بل بشر الإسلام كافة ، بمـــا منّ الله به على المسلمين ، من الظفر بعدو الدين ، فإنه كان قد استفحل أمره ، واستحكم شره ، ويئس العباد من البلاد ، والأهل والأولاد ، فنودوا : (ولا تيأسوا من روح الله) الآية .

ولمـا كان يوم الأربعاء ، مستهل السنة المباركة ، تمم الله على الإسلام بركتها ، فتحنا الخزائن ، وبذلنا الأموال ، وفرقنا السلاح ، وجمعنا العربان والمطوعة . واجتمع خلق لا يحصيهم إلا الله تعالى ، فجاؤا من كل فج عميق ، ومن كل مكان بعيد سحيق ولمـا رأى العدو ذلك ، أرسل يطلب الصلح ، على ما وقع عليه الاتفاق بين الملك العادل أبي بكر فأبينا .

ولما كان في الليل تركوا خيامهم ، وأثقالهم ، وأموالهم ، وقصـــدوا دمياط هاربين .

فسرنا في آثارهم طالبين .

وما زال السيف يعمل فيهم عامة الليل ، ويدخل فيهم الخزي والويل .

فلما أصبحنا نهار الأربعاء ، قتلنا منهم ثلاثين ألفاً ، غير من ألقى نفسه في اللجج . وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج .

والتجأ الفرنسيس الى الفدية ، وطلب الأمان فأمناه ، وأخذناه وأكرمناه .

السلطان الملك المعظم

تورانشاه نجم الدين أيوب) .

* * *

وما ان فرغ ابن يغمور من تلاوة الكتاب ، حتى أمر فأذيعت بسوريا وغيرها من البلاد الشامية أخبار النصر .

وعلقت الرايات ، وساد السرور في القصر .

وعلى ملأ من أصحابه ، والكبراء والعلماء بسوريا ، وقف ابن يغمور يعاين الهدية التي أرسلها اليه السلطان ، مع الكتاب ، فإذا بها غفارة الفرنسيس[1] .

فلبسها ابن يغمور في دست مملكته بدمشق ...

وكتب ابن يغمور في الجواب الى السلطان الملك المعظم :

اسبـــدا ملاك الزمان بأسرهم

تنجزت من نصر الإله وعوده

(١) زرد من الدرع ينسج على قدر الرأس ، يلبس تحت القلنسوة .

فلا زال مولانا يبيح حمى العدا
ويلبس أســـلاب الملوك عبيده

وكان يوماً ... ضحكت فيه دمشق، كما ضحكت القاهرة ... وفرحت فيه دمشق كما فرحت القاهرة ...

- ٧٤ -

لويس التاسع في سجنه

أغلق الطواشي صبيح السجن على لويس والذين معه ... فأخذت الجماهير تتفرق تباعاً عن الدار، بعد أن كانوا يحيطون بها يريدون أن يروا ما يفعل بهم .

وكانت الدار من الداخل بيتـــاً فخماً، فيه كل وسائل الراحة اللازمة، فسيحة تشعر النازل فيها بالهدوء والارتياح .

إلا أن كثرة المعتقلين بها، حيث كانوا نيفاً وسبعون رجلاً، جعلت الدار تبدو كأنها تضيق بأهلها .

وكانت الدار من الخارج، يحرسها ثلة من الجنود العرب، قد استقدموا خصيصاً لتلك المهمة، وفيما عدا هذه الحراسة الخارجية لا يشعر المعتقلون داخلها بأي نوع من أنواع الضيق، فلهم مطلق الحرية داخل أسوارها، يعيشون كيف شاءوا، ويتكلمون ما حلا لهم الكلام .

وكان الأمراء والنبلاء الفرنسيون يبدون في السجن كأنهم قد فقدوا الاحترام الذي كانوا يعاملون به ملكهم الفاشل، فقد كانوا لا يرغبون في مجالسته

كثيرا ، ولا يبالون به اذا تكلم .. وكانوا ينظرون اليـــه نظر المقتول إلى قاتله .. ويشعرون جميعاً أنه هو سبب ما هم فيه من إذلال .

إلا أن لويس كان ذا مكر ودهاء .. فكان يصر على أن يعاملهم معاملة الملك لرعيته .. رغم أنه فقد عرشه ، وفقد أوضاعه .. وكان هذا ما يزيدهم تبرما به وسخطا عليه .

قال لويس : كم أود أن يقرروا قتلي ..

فقال أحد الكونتات : قتلك أنت وحدك .. أما نحن فلا نريد أن تقتل .. ان لنـــا أولاداً وزوجات .. فلتذهب أنت وحدك الى الجنة أيها القديس .

قال الملك : على رسلك يا أخي .. ما بالك تثور على هذه الثورة ..

قال الكونت : حسبنا ما نحن فيه .. لم تعد أعصابنا تحتمل من وعظك شيئاً يا لويس ..

قال الملك : كأنك كنت منافقاً ، عندما خرجت معي من فرنسا .. وأنت تبدي حماساً عجيبا لغزو البلاد المصرية ..

قال الكونت : كنت أظنها لا تكلفني شيئاً .. إن هي إلا أيام وأكون حاكما على إحدى اقطاعيات مصر .. كان هذا هو ظني .. ولكن المقادير ألقت بنا في هذا السجن القبيح .

قال لويس : الويل للمغلوب .. انظروا ماذا يفعلون بنا .. القيود الحديدية في أرجلنا .. الأبواب مغلقة علينا .

قال الفونس : في رأيي أن المصريين قوم على الغـــاية من الكرم والسماحة وحسن الضيافة ، ووالله لو أوقعتهم المقادير في أيدينا لنكلنا بهم تنكيلا .

قال لويس : تلك صفات العرب جميعا .. لا مصر وحدها ..

ثم خيم على المتقلين جو من الكآبة ، يصيب الإنسان إذا ما فقد حريته .. ملئوا أنفسهم ، وملوا التحدث حتى في أي شيء ، ثم أخذوا يناموت تباعا ..

- ٧٥ -

هدايا السلطان إلى لويس واصحابه

وطلع يوم جديد على المعتقلين ، بدار ابن لقمان ، وإن كان أهل السجون لا يشعرون بالأيام والليالي ، فإن الأيام تمضي في السجن ، وكأنها يوم واحد .. لا أول له ولا آخر . والإنسان إذا ما فقد حريته ، فقد كل إحساس بالحياة .

لأن الحرية أساس الحياة الإنسانية ، فإن فقدها المرء فقد إنسانيته ، وبالتالي فقد شعوره بالحياة نفسها

طلع يوم جديد .. فنهض لويس ورفاقه .. وجعلوا يثرثرون في أحاديث لا تقدم ولا تؤخر .. يلجأ اليها السجناء عادة ليملأوا بها فراغهم ، ويرضوا بها أوهامهم .

وبينما هم في ثرثراتهم ، إذ دخل عليهم الباب ، الطواشي صبيح يتبعه ثلة من الجنود .. فقاموا وقوفا ، والأغلال في أقدامهم .

قال صبيح : هذه خلع مولانا السلطان ، بعث بها إليكم جميعاً ، الفرنسيس وأصحابه ، لتلبسوها وتتزينوا بها .

فعجب السجناء .. يسجنهم .. ويخلع عليهم ..

ثم أمر الجنود ، فنشرت الخلع السلطانية ، فإذا بها ملابس فاخرة ، بعددهم وزيادة .

فلبس كل منهم خلعته ، وتزين بها ، سوى الملك لويس ، فإنه أبى أن يلبس خلعته .

فقال له صبيح : ما منعك أن تلبس خلعة السلطان ؟ .

فنظر اليه لويس نظرة ملك لم يفقد ملكه ثم قال : هل هان لويس ملك فرنسا الى هذا الحد .. ان بلادي بقدر بلاد صاحب مصر ، كيف ألبس خلعته . ألا وإن أشق الأمور على النفس أن يحسن اليك أشد الناس عداء لك ..

فتعجب صبيح من مقاله ، وأخذ الخلعة المرفوضة ، وانصرف يبلغ السلطان ما كان من لويس .

وما ان أغلقت الأبواب ، حتى أخـــذوا يرفلون في ملابسهم ، ويلومون لويس على ما كان منه ، من تصلب وتشدد لا داعي اليه .

قالوا : لا تنس أنه لو شاء ضرب عنقك ، فلا تستفزنه بفعالك هذه ..

قال لويس مغضباً : اني أعلم كل ذلك ... ولكني أعلم كذلك اني ما زلت لويس التاسع ملك فرنسا . وانه لمفروض علي أن أظل ملكاً ، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً .

- ٧٦ -

مأدبة سلطانية للأسارى

وأشرق يوم آخر ... وجاء صبيح اليهم في سجنهم ..

قالوا : لسنا ندري ماذا نفعل بهذه الملابس الفاخرة ، داخل ذلك السجن . انها أليق ما تكون بالحفلات السلطانية الساهرة .

قال صبيح : نعم ... ومولانا يدعوكم جميعاً الى المأدبة السلطانية ، ظهر هذا اليوم ، فاستبشروا بهـــا فرصة تمكنكم من الخروج من السجن ولو الى لحظات ... وفرحوا بالدعوة ...

إلا الملك لويس ، فإنه بدا مكتئباً ، معرضاً ، فلما قيل له في ذلك ، قال : أنا ما آكل طعامه ...

قال صبيح : ولـماذا ؟.

قال لويس: ما يحضرني إلا ليهزأ بي عسكره ... ولا سبيل إلى هذا...

قال صبيح : ما لهذا قصد السلطان .

قال لويس : نحن معاشر الملوك أعلم النـــاس بمكر الملوك ، وما ينبئك مثل خبير .

قال صبيح : أنت وشأنك ... سأبلغ مولانا السلطان مقـــالك الذي قلت آنفاً .

وخرج صبيح ... وترك من ورائه عاصفة تتجمع حول الملك لويس ... الكل يلومونه على رفضه للمرة الثانية أوامر السلطان .

فلم يزد لويس على ان قال : لا تنسوا انني الملك لويس التاسع ملك فرنسا ...

- ٧٧ -

لقـاء في السجن

... وخرج جميع من معه ظهراً ... ليحضروا مأدبة السلطان بالقصر السلطاني . خرجوا في حراسة تامة ... إلا انه سمح لهم ، أن يخرجوا بالملابس التي خلعت عليهم .

بيد أن القيود الحديدية لم تخلع عنهم ..

ذهبوا جميعاً إلى المأدبة .. واخترقوا بهم نفس الطريق الذي جاءوا منه ، أول يوم إلى السجن .

خرجوا وتركوا لويس وحده بالسجن .

وحدث لويس نفسه ... يا ليتني أسجن وحدي .. ان الحياة مع هؤلاء التعساء سجن داخل السجن ... ان أشق الأمور على الإنسان ، أن يستكره على معاشرة قوم لا تتفق ميوله مع ميولهم ، فكيف اذا كان ذلك داخل سجن ليلاً ونهاراً .. وكيف اذا كان لا يستطيع الفكاك منهم لحظة واحدة .

وبينما هو في أفكاره لم يكد ينعم بوحدته إذ به يرى صبيح مقبلاً عليه وفي أصحابه امرأة ..

وما ان رأى لويس التاسع تلك المرأة حتى صـــاح : مرجريت ... مرجريت ... مرجريت ...

وتعانقا ... والسحب صبيح ، فقد انتهت مهمته .

قالت : لويس ، انك ناحل الوجه ...

قال لويس : هذه الأحزان لو صبت على جبل لحطمته .

قالت مرجريت : دع عنك أحزانك ... سوف تخرج من سجنك .

قال : وما يدعوهم إلى ذلك ؟. دعينا من هـــذا الآن ... كيف حضرت إلى هذا المكان ؟.

قالت : بلغنا النبأ بدمياط منذ أيام .. بلغنا في وقت كنا فيه على الغاية من القلق عليكم ، فلما علمت أنك مسجون حمدت الله كثيراً .. ثم جئت الى السلطان ، فأكرمني اكرام العربي لضيف ، واستأذنت فأذن لي ، ورجوته أن يسمح بمقابلة فأذن لي أن أزورك في سجنك لأطمئن عليك بنفسي .

قال لويس في حسر : تزورين حطاما ... لقد فقدت كل شيء .

قالت : أبشر .. فالسلطان رجل كريم .. لا تنس أنه عربي ..

قال لويس : لقد اعتدينا على بلادهم اعتداء غادراً ، وهذا ما يجعلني أشك في الافراج .

قالت مرجريت في دهائها التقليدي : العرب إذا قدروا عفوا ، انهم فقط لا يقبلون الضيم ، فإذا ما ظفروا بعدوهم لذلهم أن يعفو عنه .

ثم تبسمت مرجريت وقالت : ألا تذكر يا عزيزي الملك ، عندما رأيت رؤياك ، وأنت مريض في فرنسا .. ولقد قلت لك يومها ، إن غزو الشرق ليس أمراً سهلا .

قال : هكذا أراد الله يا مرجريت .. أنت والزمان ..

قالت : إن ابادت القوات التي معك ، معناه انكشاف القوات التي خلفتها بدمياط ، ولو فكر المصريون في الاجهاز عليها لأبادوها هي الأخرى في لحظات.

قال الملك وهو يهز رأسه آسفا : لقد جئت في مائة وخمسين ألفا إلى دمياط لأغزو مصر ، وتركت أربعين ألفا في دمياط ، ثم زحفت في مائة وعشرة آلاف الى المنصورة ، وها هي كلها تتبدد بين أسير وقتيل .

قالت ملكة فرنسا : وهل تظن الأربعين ألفا الذين في دمياط يستطيعون شيئا بعد اندحار ثلاثة أضعافهم بالمنصورة ..

قال لويس : أنا لا أظن شيئا .. وانما أقول انني أستطيع أن أساوم المصريين على تسليم دمياط اليهم .. وليس من شك أنهم يرحبون ، بكل شيء يؤدي الى استسلام دمياط بلا مقاومة .

قالت ملكة فرنسا : هذا صحيح .. ولكنهم يعلمون مقدما أن قواتنا التي بدمياط في حكم المنتهية .

قال الملك : سنحاول .. وعسى أن نصل معهم الى اتفاق ..

قالت : وكيف كانت معاملة سلطان المسلمين لكم ..

قال : هذا شيء بيني وبينك ولا تقوليه لأوروبا .. أحسن معاملة .. أسيء اليه كل يوم .. ويحسن إليّ كل يوم .

قالت : إن فرنسا كلها كانت تنتظر لويس الظافر .. لويس الفاتح .

قال : لقد أديت رسالتي .. ولست آسفاً على شيء ..

وما زالا يتحاوران ، ويتكلمان ، حتى قالت له : لو شئت لأقمت معك في سجنك يا لويس .

فقال القديس : هذا غير ممكن .. إن معي سبعين رجلا غيري ..

قالت : ينبغي أن تكون المرأة الى جانب زوجها دائما ، خاصة في الشده ..

قال : أشكر لك هذا الشعور الكريم يا مرجريت .. إن بقاءك في دمياط ، سوف ينفعنا .. فلربما أفرجوا عنا نظير غرامة حربية ندفعها .. فيمكنك أن تساعدينا في دفعها وجمعها ..

قالت الملكة الفرنسية وهي تبكي : لويس .. أيها القديس .. أنك تبدو عجوزاً ..

قال الملك السجين : مرجريت .. أيتها الفاتنة ..

وهمّا بما لم ينالا . .

فقد فاجأهما صبيح .. وناداهما : انتهت الزيارة ..

فخرجت مرجريت وهي تبكي وتقول : لويس .. سوف أعود اليوم تواً إلى دمياط .. سوف تخرج قريبا من هذا المكان .

بينما وقف لويس يلوح لها بيديه ، وهو يمسح ما تحدر على خديه .

. غابت مرجريت عنه .. وتركته وحيداً كما كان .

- ٧٨ -

إنذار إلى شجرة الدر

مرت تلك الأحداث التي غيرت مجرى التاريخ ، ورفعت أقواماً وأذلت آخرين ، وشجرة الدر هناك في بيت المقدس ، بعيداً عن مجريات الأمور ، بعد أن كان كل شيء بيدها هي لا بيد غيرها .

وكانت الشجرة بابتعادها عن الديار المصرية ترجو أن تفوت العاصفة، حتى ينتصر تورانشاه ، وينسى آلامه ، ثم تعود الى مصر كما كانت .

إلا أن تورانشاه ، نسي لها كل ما كان منها من حسنات ، ولم يعد يذكر لها إلا أنها امرأة أبيه ، التي دفنت أباه دفن الكلاب والجيف . وإلا أنها تلك المرأة التي كانت دائماً توغر صدر أبيه عليه ، حتى اضطر في النهاية الى ابعاده الى حصن كيفا ، تخلصاً منه . وتجسمت تلك السيئات في مخيلته ، حتى أصبح لا يطيق لها صورة أمام عينيه .

وبعث تورانشاه الى شجرة الدر رسلا يقولون لها : إن عليك أن تردي ما حملت معك من جواهر السلطان الراحل . وعليك أن تحضري الى مصر فوراً ومعك كل ما حملت الى القدس .

وتوالت الرسل .. وتوالى إصرار الشجرة على موقفها ..

وكانت هي ترتاب منه خيفة ، وتخشى أن يقتص منها ، وقد أصبح السيد المنتصر ، ودوى اسمه في الآفاق .

فأصرت الرفض .. وأبت أن تعود الى مصر ..

وأصر السلطان المعظم على عودة الجواهر .. وعلى عودة شجرة الدر ..

هذا من جهة ..

ومن جهة أخرى ، كان السلطان قد وعد الفارس أقطاي أن يؤمره ، مكافأة له على بلائه في المركة ، حيث كان هو وصاحبه بيبرس من أسباب النصر الأكيدة ، إلا أنه لم يوف له . فارتاب منه أقطاي ، واختفى عن الأنظار الى حين .

وطاشت خمرة النصر بعقل تورانشاه ، فبدى يبدي نحو المماليك ما كان يخفي ، فعزل أكابرهم وولى عليهم أرذلهم ، وفعل بهم الأفاعيل . وكانت تلك منه خطة يريد بها أن يقضي عليهم ، ويرد السلطة للأيوبيين كما كانت .

هنالك اتفق الطرفان عليه .. فكاتبت شجرة الدر فيه .. فاتفقوا ، هي والمماليك على أمر ..

٧٩ -

مصرع السلطان تورانشاه

واشتدت أفراح النصر بالبلاد المصرية ، وكان السلطان الملك المعظم أكثر الناس فرحاً ، فإن المركة منسوبة اليه ، والمجد معقود عليه .

وأمر المعظم : فنصبوا له دهليزاً سلطانيا ، على شاطىء النيل بفارسكور .

وأقيم الى جانب الدهليز ، برج من خشب .

وأعدوا له أسباب المزاح والقصف .

فمدوا البساط ، وأوقدوا الشموع ، ورسوا القناني .

ودعا السلطان كبراء دولته المظفرة ، الى تلك المأدبة الفاخرة .

فأكلوا وشربوا وشملهم البشر والسرور .

كان في تلك الحفلة السلطانية ، قادة الجيش ، وقادة المماليك ، أمثال أقطاي وبيبرس وطومان ، وكان فيها القضاة والسفراء وغيرهم .

وكان تورانشاه يبدو على الغاية من المرح ، في ذلك اليوم .

وقد أمر أن يكون الحضور الى المأدبة ، بملابس الميدان ، تمجيداً لذكرى المعركة الرهيبة ، التي لم تخمد نارها بعد .

ولعبت الخمر برأس السلطان ، وجعل يجمع الشموع الموقدة ، ويضرب رؤوسها بالسيف فيقطعها ويقول : كذا أفعل بالمماليك البحرية .

ونظر أمراء المماليك إلى بعضهم البعض ، وظنوا أنها مداعبة وملاطفة من السلطان .

إلا أن السلطان أخذته نشوة النصر مرة أخرى ، فكرر فعلته مرة ومرات على مرأى من الحاضرين جميعاً .

فاشتد غيظ المماليك عليه ، ومال بعضهم على بعض ، يتراودون في الانتقام منه .

وجعل السلطان ينادي المماليك بأسمائهم ، ويهينهم ويسبهم .. فيقول : أقطاي .. يريد أن يكون أميراً عليهم .. بيبرس يعتقد أنه سبب النصر ، في معركة المنصورة .. كلا .. لن أسمح لهم بالصعود .. لن أسمح للأرقاء بالتطلع إلى مقام السيادة ؟!

ثم جمع السلطان عدداً من الشموع ، ورصها رصا .. ثم ضربها بالسيف .. فأطار رؤوسها .. وهو يصيح : كذا أفعل بالبحرية .

فوثب بيبرس وثبته التاريخية التي اشتهر بها في المعارك الكبرى ، واستل سيفه .. وضرب به السلطان ، ليحتز عنقه ، وهو يصيح : بل كذلك نفعل .

فتلقاه السلطان بيده ، فقطع بعض أصابعه .

فلما رأى المدعوون ما جرى .. انفضوا على خوف ورعب .

بينما وقف بيبرس يزأر كالأسد : نحن اصطلينا بنارها ، وقاتلنا الأعداء ، وقهرناهم ، ليكون جزاؤنا منك أيها الغادر ، قطع الرقاب .. والله لا يهدأ لنا بال حتى نتمم عليك .

أما السلطان تورانشاه ، فقام من وقته ، ودخل البرج الخشب الذي كان قد عمل هناك بفارسكور .. وصاح : من جرحني ؟.

قالوا : الحشيشية ...

فقال : لا والله ... الا البحرية ، والله الا أبقيت منهم بقية .

واستدعى المزيّن ، فخيط يده ، وهو يتوعدهم .

فقال بعضهم لبعض : تمموه وإلا أبادكم .

فدخل أمراء المماليك عليه البرج يقاتلونه ، فانهزم الى أعلى البرج .

فأوقدوا النيران حول البرج .. ورموه بالنشاب .

فرمى بنفسه ، وهرب نحو البرج وهو يقول : ما أريد مُلكاً .. دعوني أرجع إلى الحصن .. ما فيكم من يصطنعني ؟.

والعساكر واقفة فما أجابه أحد .

والنشاب تأخذه .. فتعلق بذيل الفارس أقطاي ، فما أجاره ..

فألقى السلطان بنفسه الى النيل ، بعد أن شوته النـــار ، فألقى أقطاي بنفسه وراءه في اليمّ ، فأجهز عليه بالسيف في الماء .

ثم حملت جثته الى الجسر ، وبقي على جانب البحر ثلاثة أيام منتفخاً ، لا يجسر أحد أن يدفنه ، حتى شفع فيه رسول الخليفة ، فحمل إلى ذلك الجانب فدفن به .

وكان قتله يوم الاثنين ، سابع عشرين المحرم ، من ســنـة ثمان وأربعين

وستمائة ، وكان قدومه من حصن كيفا إلى المنصورة ، في ليلة مستهل المحرم من السنة المذكورة .

وكان ذلك هو جزاء الملك المستهتر بحقوق بلاده ، وحقوق شعبه .

- ٨٠ -

شجرة الدر تتولى السلطنة

كان واضحاً جداً ، أن السلطة قد آلت الى المماليك البحرية ، بعد مصرع السلطان تورانشاه إلا أن المماليك البحرية لم يكونوا ليجسروا عليها ، وقد رأوا بأنفسهم نفور الناس من ولاية الأرقاء . حقاً لقد أصبحوا سادة الموقف . ولكنهم ما زالوا في نظر الناس أرقاء .

ودخل أقطاي إلى شجرة الدر ، بالجناح الأيسر من القصر السلطاني بالمنصورة ، ومن ورائه بيبرس .. وتقابلا مع الشجرة .

قالت : ماذا وراءكم ؟.

قالوا : قتلناه .. وعلمناه كيف يحترم إرادة شعبه .

قالت : لو لم يكن عجولاً لأراح واستراح .

قالوا : والآن .. أنت سلطانة البلاد حتى تستقر الأمور .

قالت في مكر : هل نسيتم أن شجرة الدر امرأة ، وليست من الرجال ؟.

قالوا : هي خير من كثير من الرجال .

قالت : وهل يوافق مولانا الخليفة في بغداد على ولاية المرأة ؟.

قالوا : هذا شيء مؤقت ، ومرهون بالظرف .

قالت : لم يحدث في تاريخ الإسلام كله أن تولت امرأة السلطان .

قالوا : لقد وقع اختيارنا عليك يا أم خليل .. وسوف نفكر في شرعية الأمر بعد قليل .

وعادت الأمور مرة أخـــرى إلى شجرة الدر .. وتسلطنت الشجرة .. وخطب لها على المنابر .. فكانوا يقولون : اللهم انصر أم خليل ، السلطانة شجرة الدر .

- ٨١ -

شماتـــة

كانت شمس الملوك تداعب صغارها ، وتنتظر أوبة زوجهـا الملك المعظم تورانشاه من مأدبة فارسكور .. وكانت فرحة غاية الفرح .. تحس بنشوة الملك ، وخمرة النصر ، ولذة الأنس . ولم لا .. ها قد انتصر زوجها على الأعداء. ودوى اسمه عالياً في الآفاق .. ودخل التاريخ من أوسع أبوابه .

وها هي وقد تربعت على عرش الأيوبيين ، تتبوأ منه حيث تشاء ، ثم ها هي وقد شفت صدرها من زوجة أبيه .. فلم يعد لشجرة الدر من الأمر شيء .. بل هي سجينة جناحها بالقصر .. لا يسمح لها بمغادرته إلا بإذن من السلطان .

وضحكت شمس الملوك ضحكة نسوية عالية ، فيها شماتة المرأة بالمرأة ، وغل الغريم بغريمه .

وضحكت الأقدار ضحكة أعلى وقالت (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت أتاها أمرنا ...) .

لما ان أتمت ضحكتها ، حتى جاءها رسول من شجرة الدر ، يدعوها الى المثول بين يديها .

فضحكت شمس الملوك مرة أخرى وقالت : شجرة الدر .. وماذا تريد مني هذه المرأة ؟.

قال الرسول : هي تدعوك يا سيدتي إلى مقابلتها .

قالت الشمس : قل لها تعالي أنت إلى شمس الملوك .

وعاد الرسول إلى السلطانة شجرة الدر ، يقص عليهـــا ما كان من شمس الملوك ، فابتسمت الشجرة في دهاء ، وقالت : أنا آتيها قبل أن تأتيني .

دخلت شجرة الدر على شمس الملوك ، فألقتها على صفاء وهناء .

قالت الشجرة : ما لك تضحكين أيتها المرأة ؟.

قالت الشمس : وما شأنك بي يا سيدتي ؟.

قالت الشجرة : ألم تعلمي أن السلطان ...

قالت الشمس وقد أحست بغريزتها وقع المصيبة : ماذا ؟.

قالت الشجرة : قد اغتالوه بفارسكور .

فصاحت الشمس : من الذي قتله ؟.

قالت الشجرة : المماليك ...

قالت الشمس وهي تولول : وأنت من ورائهم أيتها الخبيثة .. أنت سبب المصائب كلها .

قالت الشجرة : احذري .. أن تحتقلي .. لقد ذهب عنك كل شيء .. أنت الآن في ضيافتي .. استعدي للرحيل إلى قصر الروضة .

قالت الشمس وقد تخلخل عقلها : توران .. قتلوك يا توران .. توران ..

قتلتك شجرة الدر .. توران .. قتلتك امرأة أبيك .. عليكِ اللعنة .. عليك اللعنة يا مجرمة .

فقالت الشجرة : هم الذين قتلوه .. ولست أنا القاتلة .

قالت الشمس وقد انكسفت وخبــا نورها ، وأظلمت عيناها : بل أنت القاتلة .. أنت من وراء الحادث .

قالت الشجرة وهي تنسحب إلى جناحها ، وقد أحست بهول الجريمة التي اشتركت في تدبيرها : مسكينة .. مسكينة .

- ٨٢ -

وفاء شمس الملوك لزوجها

وركبت شمس الملوك جواداً سلطانياً أصيلاً ، من جياد السلطان تورانشاه الخاصة ، وانطلقت به تسابق الريح إلى فارسكور .

وبعد قليل كانت قريباً من المكان الذي قتل فيه زوجها .

قالت الشمس وهي على صهوة جوادها محجبة الحجاب الإسلامي ، لا يرى منها إلا وجهها وكفيها : أين السلطان ؟.

فدلها العساكر على جثته ، وأشاروا لها بأيديهم اليها ..

لما ان رأت زوجها ممدداً على شاطىء النيل ، حتى أهوت عليه تقبله ، وهي تبكي وتولول : توران ... قتلتك امرأة أبيك يا توران ... لقد شق عليها أن يؤول اليك ملك الأيوبيين ، فلم ترع فيك إلا ولا ذمة .

ووقف العساكر ينظرون اليها ، مشفقين عليها ، إلا أن الليل كان قد أخذ يشمل الآفاق ، فأشاروا عليها بالعودة الى قصرها .

قالت : دعوني أموت معه .. فلا خير لي في الحياة من بعده .

قالوا : هيا سيدتي ... ان الأوامر صريحة .. أن نمنع من يريد الوصول إلى الجثة .

قالت : أوامر من ؟.

قالوا : أوامر المماليك ..

قالت : عليهم اللعنة .. ان فيهم خسة الرق ، ودناءة العبد .. ولو كانوا على خلق ، ما تركوا جثته هكذا في العراء .

قالوا : صدقت ... ولكن ماذا نفعل ... وقد آل الأمر اليهم ؟.

قالت : الويل للناس إذا أسندت الأمور إلى غير أهلها .

وركبت جوادها .. وانطلقت به .. حتى غابت في الأفق .

- ٨٣ -

ليـــلة عاصفة

دخلت شمس الملوك الى مخدعها ، فتلقاها أبناؤها يبكون ...

قالوا : يا أمتاه ... أين أبتاه ؟.

قالت وهي تخفي ما بها فلا تستطيع : قتلته زوجة أبيه ..

قالوا : شجرة الدر ؟.

قالت : ليس أحد غيرها ..

قالوا : ولماذا ؟.

قالت : حقداً وغلا .. وإن امرأة الأب لهي العدو المكين .

قالوا : ولن يعود ؟.

قالت : لقد قطعوه قطعاً .. وتركوه جثة على شاطىء النيل .. بعد أن سجل لهم أكبر نصر في تاريخ البلاد ... ليته لم يخلص لبلاده ... ولم يكن شجاعاً .

قالوا : أبتاه ... أبتاه ...

وانفجروا يبكون ..

أما شمس الملوك فلم تطق المبيت وحدها ، فذهبت من فورها إلى جناح شجرة الدر ، وجعلت تسبها سب الجروح الموتور ، فقالت : الآن يهدأ بالك أيتها اللعينة . الآن تنامين على الحرير وتورانشاه ينام متطعاً على شاطىء النيل . الآن يهدأ بالك ، وبال السفلة المماليك .. لو لم يخرج الأمر من يدي لانتقمت منكم .. ولكن الأمر قد خرج من يدي إلى الأبد .

وحاولت شجرة الدر أن تقنعها ، أنها لم تشترك في المؤامرة ، وأنها بريئة من كل تلك التهم ، إلا أن شمس الملوك كانت تتكلم وهي تريد أن تمزق شجرة الدر تمزيقاً .

وأخيراً قالت الشجرة : يا شمس .. ان لك أن تمتدي ما تشائين .. ولكني الآن سلطانة البلاد .. وأنا آمرك بالرحيل فوراً عن هذا القصر في الصباح .

وسيكون هناك على شاطىء النيل مركب سلطاني ينتظرك في الصباح الباكر .. وعليك أن تركبي فيه وأطفالك ومن شئت من خدمك ، وخذي

معك ما تشائين من الحلي والملابس والمهمات . لست أريد أن أشق عليك .. ولا أن أفعل كما كان تورانشاه يريد أن يفعل معي .. حيث كان يطالبني بالجواهر التي احتملتها معي إلى القدس .. قدري يا بلية الظروف .. واعلمي أن الحياة يوم لك ويوم عليك .

فنظرت شمس الملوك إلى السلطانة شجرة الدر ، وألقت في وجهها آخـــر ما تملك من غيظها : أيتها الشريرة .. سوف ينتقم الله منك .

- ٨٤ -

رحيل شمس الملوك إلى قصر الروضة

نعوذ بالله من شماتة الأعداء ..

فما أن ارتفعت مآذن المنصورة بآذان الفجر ، حتى كانت شجرة الدر ، تحث شمس الملوك ، ورسلها لديها يبلغونها الرغبة السلطانية السامية .

ولم تستطع الشمس أن تكتم غيظها ، فمادت تسب شجرة الدر على مرأى من رسلها : قولوا لها عين الله لا تنام .. قولوا لها من قتل يقتل .. قولوا لهـا سوف ينتقم الله منها ، كما تدين تدان .

وكانت شمس الملوك تبدوا في تلك اللحظات الرهيبة ، كأنما قـــد شاخت ، وولى شبابها .

وانطفأت من وجهها أنوار الملك ، وعز السلطنة .. وزاد من غيظها أنها تخرج من مخدعها مأمورة مقهورة من عدوتها .

وبدأ الحمالون يحملون متاعهـــا إلى المركب الراسي على شاطىء القصر السلطاني المطل على النيل .

لقد قضت الليل تجمع ملابسها، وجواهرها، وتقبل ملابس زوجها الراحل.

لقد أخذت معهـــا كل شيء يتعلق بتوران شاه .. ان لكل ثوب ، ولكل رداء ، ولكل سيف من سيوفه ، عندها ذكرى عزيزة كريمة .

وقضى الحمالون ساعات، يحملون متاعها .

ثم خرجت شمس الملوك مقهورة .. يتبعها صغارها .. تتشح بالسواد .. وتبكي بكاء الثكالى .

ووقفت الشمس على رصيف الميـنـــاء السلطاني ، تنظر إلى القصر النظرة الأخيرة .. فغلبتها عيناها.. ثم انحدرت الى المركب وهي تردد : اللهم انتقم.

وكان هناك السان ، ينظر من وراء حجاب ، إلى رحيل شمس الملوك ، إلا أن شمس الملوك لم تك تحس شيئاً من ذلك ..

كانت هناك شجرة الدر تقف خلف الستائر ، تنظر من طرف خفي إلى غريمتها شمس الملوك .

- ٨٥ -

في دار ابن لقمان

لم يكن لويس ورفاقه في السجن يعلمون شيئاً ، مما دار خارج الأسوار .

فقد قتل السلطان .. وتسلطنت أم خليل ، شجرة الدر ، وآلت الأمور اليها ، وهم لا يشعرون بشيء .

حتى كانوا ذات يوم .. فدخل الأمـــير حسام الدين بن أبي علي — نائب السلطانة بالقاهرة — عليهم .. فدهش أهل السجن ، وتحلقوا من حوله .

قال الأمير : يا لويس .. جئت أتكلم معك في أمر هام .

قال لويس : تكلم سيدي .. فيم جئت ؟.

قال : ان دمياط لم نتسلمها بعد منكم .. وما زال فيها نحواً من أربعين ألف من الجنود .. ولو شئنا لمحونا بهم الأرض .. ولكن ...

قال لويس : أنا أعلم ذلك ، ولكن ماذا تريد مني الآن ؟.

قال حسام الدين : نريد تسليم دمياط بلا قيد أو شرط .

قال لويس : وكيف ذلك أيها الأمير ؟. انهـــا قائمة هناك ولا شأن لي بها الآن .

قال حسام الدين : لا تراوغ مراوغة الثعلب .. فإن دمياط تحت لوائك ، وأنت تستطيع تسليمها .

قال لويس : نعم ولكن بشروط .

قال حسام الدين : وما هي شروطك أيها الأسير ؟.

قال : أن تطلقوا سراحنا .. وأن تنسحب جميع جنودنا منها إلى البحر وأن ...

قال حسام الدين : انظر يا لويس .. لو شئنا لضربنا أعناقكم .. ثم توجهنا إلى دمياط ، واستولينا عليها قهراً ، وقتلنا من بها من الفرنسيين جهراً .

قال لويس : ولماذا لم تفعلوا ؟.

قال حسام الدين : لقد أبقينا عليكم كرهائن ، وسوف نطلق سراحكم جميعاً ، إذا سلمتم دمياط الينا بمن فيها وما فيها ، بلا قيد ولا شرط .

وما زالا يتراوغان ، حتى استقرت الأمور بينهما على الاتفاق الآتي :

أولاً ــ يسلم الفرنسيين دمياط إلى المصريين .

ثانياً — يدفع الملك لويس وأصحابه بالسجن ، ثمانمائة ألف دينـــار إلى المصريين ، تعويضاً حربياً ، عما كان بدمياط من الحواصل وقت أن استولى عليها الصليبيون .

ثالثاً — يطلق سراح أسرى المسلمين .

رابعاً — يطلق سراح الملك لويس التـــاسع ورفاقه السجين . ويسمح لهم بمغادرة البلاد المصرية .

خامساً — يسمح للقوات الصليبية بدمياط بالانسحاب الى البحـــر ومغادرة دمياط .

— ٨٦ —

عرض الشروط على القصر السلطاني

عاد الأمير حسام الدين الى القصر السلطاني ..

وكانت شجرة الدر إذ ذاك قد اتخذت من المماليك ، عز الدين ايبك التركماني ، نائباً لها ، لما رأت اعتراض الخـــلافة العباسية ببغداد على ولايتها ، واستنكار الناس لسلطنتها .

عاد حسام الدين الى القصر ، وقابل نائب السلطانة شجرة الدر ، وعرض عليه المعاهدة ، التي اتفق عليها مع الملك لويس التاسع .

فأقرّها عز الدين ، بعد أن عرضها على شجرة الدر ، فيما عدا الشرط الأخير ، وهو السماح للقوات الفرنسية ، بالانسحاب الى البحر .

قال عز الدين : كيف نسمح لقوم جاؤوا بلادنا معتدين بالانسحاب .. ولم

نلحقهم بإخوانهم ، أصحاب معركة المنصورة .. يا حسام الدين .. اذهب إلى الرجل في سجنه ، ونبئه أننا عند شروطنا فيما عدا الشرط الأخير .. فإن أبى فقل له : سنقطع أعناقكم .. ونأخذ مدينتنا بأيدينا .. ونقتـــل من فيها من جنودكم عن آخرهم .

فعاد حسام الدين الى السجن .. وأبلغ لويس وأصحابه ، ما استقر عليه الرأي ..

فشاور لويس رفاقه ، فأشاروا عليه أن ينزل على شروط المصريين .

فقال لويس : قد قبلنا شروطكم .

فقال حسام الدين : إذاً تحلف على ذلك .

فحلفوا على هذا ...

- ٧٨ -

الجيش المصري يدخل دمياط

وفتحت دار ابن لقمان لأول مرة منذ دخلها لويس التاسع وأصحابه على مصراعيها .. وأخرج من كان فيها ، لويس التاسع ، وأصحابه السبعون .

وأركبوه هذه المرة بغلة .. أما سائر رفاقه فسيقوا من خلفه كالبهائم سوقاً.

ولم ينتظر عز الدين .. وإنما أمر فتحرك الجيش المصري إلى دمياط، ليسبق لويس ، ويدخلها عنوة ، حتى لا يقال أن الفرنسيين قد أخلوها بمحض إرادتهم .

وسار الجيش المصري الى دمياط ، ثاني صفر ، سنة ثمان وأربعين وستمائة من الهجرة ، وسار موكب لويس وأصحابه في مؤخرة الجيش .

ودخل الجيش دمياط قرب الظهر .

فما أن وصلت طلائع الجيش المصري الى مداخل دمياط ، وما أن رأت القوات الفرنسية الجيش يقتحم دمياط عنوة ، حتى أخذوا يهربون الى مراكبهم الراسية قبالة دمياط ، ويخلونها .

وتقاطرت العساكر المصرية على المدينة ، تسبقها شهرتها في معركة المنصورة فازداد جنود الفرنجة هرباً إلى أسطولهم .

وكانت مرجريت ممن هربوا مع الهاربين الى السفينة الملكية بالأسطول الصليبي .

ودخل الجيش المصري دمياط فاتحاً ، وأخذ يستولي على ما فيها من المهمات والمعدات ، التي تركها الفرنجة وولوا الأدبار .

وظفر الجيش بالفرنجة الذين لم يستطيعوا الهرب الى البحر ، فقتلهم عن آخرهم ..

ثم وجد أمراء الجيش المصري ، أن العساكر توشك أن تغنم كل ما في دمياط فأمروا بهم ، فأخرجوا خارج المدينة .

هنالك وصل ركب الملك لويس وأصحابه الى دمياط .

فما وصلوا إلا والمسلمون على أعلاها ، بالتكبير والتهليل ..

فلما علم الفرنسيس أن قواته قد هربت إلى البحر ، وأن ما ثبت منها بالمدينة قد أبيد إبادة تامة ، خاف واصفر لونه .

* * *

ووقف الأمير حسام الدين ينصح نائب السلطانة عز الدين أيبك التركماني ، وكان ذلك وهم بدمياط ، حيث قدموا اليها على رأس الجيش ، ليشهدوا استلامها وينعموا بعودتها إلى البلاد المصرية ، فقال حسام الدين لعز الدين : هذه دمياط

قد حصلت لنا .. وهذا الرجل في أسرنا .. وهو عظيم النصرانية.. وقد اطلع على عوراتنا .. والمصلحة ألا نطلقه .

فقال عز الدين : ما نرى العذر ..

قال حسام الدين : كيف نطلق سراح الملك لويس بلا مقابل ..

قال عز الدين : لقد اتفقنا ولا ينبغي أن ننقض الاتفاق .

قال حسام الدين : دمياط وقد استولينا عليها .. والقوات الفرنسية وقد هرب أكثرها إلى البحر ، بعد أن قتلنا أكثرها.. ولويس ورفاقه في أيدينا.. فلماذا لا نقتلهم ، ونريح العالم من مجرمي الحرب هؤلاء ..

قال عز الدين في حزم وأمر : بل نمضي اتفاقنا ... ونطلق أسرانا ... والمؤمنون عند شروطهم ..

فتحسر حسام الدين ، على افلات لويس ورفاقه من يد المصريين بعد أن أمكن الله منهم ، وذهب ينفذ الاتفاق ..

- ٨٨ -

الافراج عن ملك فرنسا

وتكونت على الفور لجنة من الطرفين ، من المصريين ، ومن الفرنسيين .

وباشرت اللجنة مهمتها .. في تقويم المهمات الفرنسية بدمياط .

وقومت الحواصل التي بقيت بها ، بأربعمائة ألف دينار .

ورفعت اللجنة تقريرها إلى الأمير حسام الدين ، فرفعه بدوره إلى نائب السلطانة ، عز الدين التركماني بدمياط .

قال عز الدين : إذاً يبقى لنا أربعمائة ألف اخرى .. فان الاتفــــاق على ثمانمائة ألف دينار .

وخوطب الملك لويس في ذلك .. وكانوا يجلسون هو وأصحابه على حالهم من القيود الحديدية ، في مكان ما بدمياط ، تحت الحراسة المشددة ، فقال لويس: نحن عند شروطنا .. يذهب رسولي هذا الى الأسطول الفرنسي بالبحر ، وسوف يعود ، ومعه ما تبقى لكم من التعويض .

وسمح لرسول الملك لويس ، أن يركب ويذهب إلى المراكب الفرنسية ، المرابطة تجاه دمياط .

وقابل الرسول الملكة مرجريت ، في سفينتها الملكية وقال : إن الملك لويس يريد أربعمائة ألف دينار ، بقية ما اتفق عليه مع المصريين ، حتى يطلقوا سراحه ، ويفكوا الأغلال التي في أقدامهم .

قالت مرجريت : لقد أعددت كل شيء ، منذ عدت من زيارته في سجنه بالمنصورة ، وأنا أتوقع ذلك المصير ، فجعلت أجمع من الدنانير ما يكفي لأفتديه هو وأصحابه بها .

فنادت مرجريت فجاؤها على عجل – قالت : عدوا أربعمائة ألف دينار ، واحملوا أكياسها إلى مركب هذا الرسول .

وتم لها ما أرادت .. وعاد الرسول ومعه المبلغ المطلوب .

واستلم الجانب المصري أربعمائة ألف دينار أخرى .

* * *

وأمر حسام الدين .. ففكت الأغلال من أقدام ملك فرنسا ، ثم من أقدام نبلاء فرنسا .

وقال نائب السلطنة عز الدين أيبك التركماني : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

ونادى المؤذن لصلاة العصر ، وانحدروا في شيـــني[1] الى بقايا مراكبهم وأطلقوه هو وجماعته عصراً .

ووقف الجانب المصري على شاطىء دمياط ، ينظرون إلى لويس التاسع وأصحابه ، وهم يبتعدون في المركب الشراعي عن الأرض التي اعتدوا عليها ..

ونظر الأمير حسام الدين اليهم ثم قال : ليتنا لم نطلقهم .. سوف يستأسد مرة أخرى .. وسوف يعود .

فقال عز الدين : العفو عند المقدرة يا حسام الدين ..

- ٨٩ -

في عرض البحر

وتحرك ما تبقى من الأسطول الفرنسي الغادر ، يبتعد عن دمياط في ذلة ، وعلى رأسه الملك الفاشل لويس التاسع .

ومضت السفن تمخر عباب البحر الأبيض ، تتجه شمالا بشرق .. إلى عكا ، ووقف الملك لويس ذليلا كسيرا ، على ظهر سفينته ، يتأمل ما تبقى من أسطوله وحملته ..

وكانت زوجته مرجريت ملكة فرنسا بجانبه .

فقال لها : لم أك أصدق أنني سوف أخرج من السجن ؟!

قالت مرجريت وهي تضع كفيها على وجهها من شدت عصف الهواء : حقاً .. انها معجزة أن تعود حياً يا لويس .

---

(١) نوع من المراكب الشراعية .

قال ملك فرنسا : ما أجمل الحرية .. ما أجمل البحر ..

قالت مرجريت : لعلك تتعلم مما جرى أن تحترم حرية الآخرين .

قال الملك : لقد تعلمت .. ولقد دفعت .. دفعت الثمن غالياً فادحاً .. يا مرجريت .. لقد كان معي عندما قدمت إلى دمياط ، تسعة آلاف وخمسمائة فارس ، ومائة ألف وثلاثون ألف جندي ، سوى الغلمان والسوقة والبحارة .. على ألف وثمانمائة سفينة .. وها أنذا أعود وقد فقدتهم جميعاً ، إلا هذه المراكب المعدودة ، وهذه العشرة آلاف جندي المنهزمة .

قالت مرجريت : لعلك لا تفكر مرة أخرى أيها الملك في مغامرة كهذه .

قال لويس التاسع . لا يتأتى للغرب أن يملك الشرق إلا إذا ملك مصر .. انها من الشرق كالقلب من الجسد .. من أصابه أصاب الجسد كله .

قالت مرجريت : تلك كانت أحلامك أيها الملك .

قال لويس : وسوف تظل تلك أحلامي دائما .. ولسوف ألقنها لكل غربي : إذا أردتم الشرق فعليكم بمصر .

* * *

بعد أن اطمأن الملك الفاشل أنه ابتعد عن الشاطىء المصري .. أنفذ رسولاً إلى الجانب المصري يقول : ما رأيت أقل عقلا ولا ديناً منكم .. أما قلة الدين ، فقتلتم سلطانكم بغير ذنب .. وأما قلة العقل فكذا .. مثل ملك البحر وقع في أيديكم بعتبره بأربعمائة ألف دينار ، ولو طلبتم مملكتي دفعتها لكم حتى أخلص . فندمت الأمراء على اطلاقه ..

إلا الأمير حسام الدين ، فتبسم ثم قال : ألم أقل لكم أنه سوف يستأسد مرة أخرى ...

- ٩٠ -

احلام تبددت

ثم لمـا سار لويس إلى بلاده فرنسا ، بعد أن قضى وقتاً بعكا .. أخذ في الاستمداد والعودة إلى دمياط .. فأهلكه الله تعالى ، قبل أن يحقق أحلامه .

وقال في ذلك الصاحب جمال الدين يحيى بن مطروح ، قصيدته المشهورة ، وكتب بها إلى لويس التاسع بفرنسا ..

قـل للفرنسيس إذا جئتـــه	مقال صدق من قؤول فصيح
آجرك الله على ما جـــرى	من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصـــر تبتغي ملكها	تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحـــين إلى أدهـــم	ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكان أصحابك أودعتهم	بحسن تدبيرك بطن الضريح
خمسون ألفا لا ترى منهـــم	إلا قتيلا أو أسيراً جريح
وفقـــك الله لأمثـــالها	لعل عيســـى منكم يستريح
إن كان بابكم بذا راضياً	فرب غش قد أتى من نصيح
وقل لهـــم اضمروا عـــودة	لأخذ ثار أو لعقد صحيح
دار ابن لقمان على حالهـــا	والقيد باق والطواشي صبيح

﴿ تمـــت ﴾

فهرس

الموضـــوع	صفحة

ماذا في هذا الكتاب ؟!

[illegible] ... أول امرأة ... حكمت في الإسلام ...

ليست قديسة ... ولا راهبة ... وإنما ملكة بكل

[illegible] الكلمة ... والأعيب السياسة ...

امرأة قادت المعركة ... في أحلك الظروف ...

حتى حققت النصر الساحق ... في معركة المنصورة ...

الخالدة ...

اقرأ تفاصيل المعركة ... كأنك تشهدها بعينيك ...

مأساة الملك القديس ... لويس التاسع ... وهزيمته

الساحقة في المنصورة !!!